رواية
كل شيء بقدر
إسلام باكلي

إسلام باكلي

# كلّ شيء بقدر

رواية

الطبعة الأولى

السداسي الأول 2017 م – 1438 هـ

ردمك : 978-9931-615-79-8

جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع
العنوان: رقم 11 شارع الاستقلال – باتنة - الجزائر

هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 49 20 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهداء

إلى القارئ، ضيفا جديدا كنت أم زائرا عائدا، على الأرجح لن يجدك كتابي بخير، ولكن أدعو الله أن يترك فيك خيرا.

"يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات. احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تّجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفّت الصّحف."

- حديث شريف -

" لو خرجت المرأة مع كلّ الرّجال، ولم يقدّر الله لها الزّواج...لما تزوّجت، ولو كانت تسكن داخل خيمة في صحراء قاحلة لم يحطّ فيها البشر رحالا غيرها، وقدّر الله لها الزّواج، لجاء ابن الحلال يطلب يدها، كان يظنّ أنّه ضائع في الصّحراء، ولكنّ الله لم يضيعه بل كان يقتاده إلى قدره..."

- إسلام باكلي -

# الفصل الأول

ذكريات، ليس الموت ما يقتل الإنسان، بل الذّكريات؛ الإنسان الّذي يعيش كفايةً ليحمل عبء الحياة يموت بوقت طويل قبل أن يتوقّف قلبه. لطالما أرعبني الموت، تلك اللحظات الأخيرة الّتي تبحث فيها جاهدا عن نفسٍ واحدٍ ولكنّك لا تقدر عليه، تبدأ أعضاؤك بالفشل الواحد تلو الآخر إلى أن يتوقّف جسدك عن العمل نهائيا ويخيّم الظّلام، تلك اللحظة الّتي تدرك فيها أنّك على مشارف النّهاية ولا تدري ما المصير، إمّا الجنة وإمّا النّار، تلك اللحظات الأخيرة قبل أن تفقد حاسة سمعك، تصغي فيها لكلّ شيء حولك، أصوات السّيارات، والنّاس، وكلّ ما تصل أمواجه لطبل أذنك، وهناك تدرك أنّ الحياة لا تتوقّف لأحد، بالتأكيد لم تتوقّف لك، تدرك أنّك سُرعان ما ستُنسى، ولن تبقى حتّى مجرّد ذكرى، وكلّ ما ستشعر به هو شعوران من أسوأ ما قد يصاحب الإنسان خلال حياته، فما بالك خلال موته، الخوف لأنّك كنت تعيش في غفلة، والوحدة لأنّك أصررت عليها.

- حسنٌ، أنا خارج، حاولا ألّا تهدما المنزل إلى حين عودتي (قلت هذا وأنا أربط فردة حذائي الأيسر قرب الباب)

- إلى أين؟! (سألني والدي من غرفته)

- كنت أفكّر في أن أذهب لمراقبة بعض الحسناوات، هل تأتي معي؟

- طبعًا...طبعًا، وهل كنت ستتركني هنا؟! دعني أرتدي ملابسي بسرعة! (أجابني بنبرة عالية قليلا ليتأكّد من سماع أمّي لجوابه)

- آدم!!! (سمعنا صراخها على وقع خطواتها قادمة نحونا من المطبخ) أنت طريح الفراش وتفكّر في النّساء!!

- هذا لأنّني لم أكن يوما مع واحدة!

- وماذا أكون أنا؟

- وحش الغابة؟! غول؟! كابوس؟!

توجّهت أمّي ناحية السّرير حاملةً ملعقةَ الطّبخ فوق رأسها، فأمسكتُها بسرعة وطبعت على جبينها قبلة ثم قلت لها:

- أنا أعزب، ولست طريح الفراش، فهل يمكنني أن أفكّر في النّساء؟

- هل تريد الزّواج؟

- ومن لا يريد؟! (أجبتها)

- أنا! (أجاب والدي، ورغم أنّ أمّي عبست في وجهه وهدّدته بالملعقة مجدّدا إلّا أنّني لم أستطع كتمان ضحكتي)

- سأختار لك زوجة (قالت)

نظرتُ إليها مُستغربا في صمت، ثمّ استدرتُ ناحية والدي وتوجّهت إلى جهة الفراش الفارغة.

- تنحّ جانبا، أنا مريض أيضا

ضحك والدي وأزاح اللحاف لأجلي كي أستلقي جنبه بكلّ ملابسي.

- ماذا؟! ما خطب الفتاة الّتي سأختارها لك؟

- هل هي فرد من جهة عائلتك؟ (سأل والدي)

- نعم!

- وتلك هي الإجابة عن سؤالك

- وما خطب عائلتي؟!!

أشار أبي بيديه إلى جسمه الهزيل طريح الفراش من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ثمّ قال:

- هذا هو الخطب، هكذا ستكون النّتيجة...ابني؟! انج بحياتك، أركض...!

لا أنكر أنّني ضحكت بشدّة. تظاهرت أمّي بالغضب واقتربت من السّرير فأمسكها أبي من يدها وأقعدها على حافة الفراش، ثمّ قبّلها على جبينها وهمس لها:

- دنيا وجنّة.

ابتسمتْ أمّي واحتّضنته، كنت أعلم أنَّ وراء تلك الكلمات قصّة، فهو يقولهما لها في كلّ فرصة، كلّ شجار، خلال كلّ مزحة، بل وحتى كلّ ليلة قبل أن يخلدا للنّوم. رغم أنّني كنت شديد التّوق لمعرفة سرّ تلك الكلمتين، إلّا أنّني كنت مُحرجا من أن تكون في القصّة تفاصيل لا يجب على الابن سماعها عن والديه أو منهما، إن كنتم تفهمون ما أعني!

- ابني، أنت تبحث عن عمل كلّ يوم منذ أن أنهيت الجامعة قبل سبعة أشهر، لما لا تأخذ هذا اليوم راحة، تتجوّل مع أصدقائك وتغيّر الجوّ قليلا؟

سؤاله لم يكن مجرّد طلب عادي، فهو يطلب منّي هذا كلّ يوم، وجوابي كان كالمعتاد، ابتسمت وقلت:

- كان ذلك ليكون رائعا، لو كان لديّ أصدقاء!

- إذن أخرج وجِد بعضا منهم!

- تقول هذا ببساطة شديدة كأنّني سأخرج وأجد متجرا لبيع الأصدقاء. هذا عليه خصم لأنّه لا يصلّي وذاك ارتفع ثمنه لأنّه تعلّم مشاركة الطعام عوض أن يحشيه داخل فمه قطعة كاملة فور ما يراك قادما

- ما زلت لا أفهم كيف لم تستطع أن تكسب ولو صديقا واحدا بالجامعة وأنت مثالي! دائم الابتسامة، ويا لها من ابتسامة جميلة أيضا! (تدخّلت أمّي)

- أنت تقولين هذا لأنّني ابنك، عدا الجزء الخاص بالابتسامة فأنا أعرف ذلك بالفعل...بكلّ تواضع يعني! (قلتها ممازحا ثمّ أكملت حديثي) بالإضافة، كلّ ما يفعلونه هو التسكّع، الكذب، ملاحقة الفتيات، سوء الكلام، الشّجار، الغيبة وقذف النّاس، ليس بالإشاعات فقط...بل قذفهم بالأشياء أيضا. أتذكران الشّتاء الماضي حين

أثلجت بقوّة؟ لقد صعدوا فوق سطوح العمارات وصنعوا كرات ثلجية محشيّة بالحجارة والزّجاج، ثمّ رموها على المارة تحتهم. أنتما علّمتماني شيئا هم لم يتعلّموه.

- وما هو؟ (سألني أبي)

قمتُ من السّرير ثمّ قبّلت رأس كلاهما وأجبته بينما كنت بطريق للخروج:

- علّمتماني حسن الخُلق. بالمناسبة، هناك رائحة شيء ما يحترق بالمطبخ.

- الخبز بالفرن!! (صاحت أمي)

لم يكن صعبا بالنّسبة إليّ الابتسامة في أصعب الأوقات، لم يكن صعبا عليّ أن أكون خفيف الظّل وبداخلي ثقلٌ لا أقوى على حمله، يقولون عنّي أنّني من أولئك الّذين يواجهون الحياة بابتسامة ودون مبالاة، ممّن لا يحملون همّا ولم تضغط عليهم الدنيا يوما، ولكنّني لست كذلك، في الحقيقة كنت أزيّفها، ليس لأجلي، بل لوالديَّ، صعب عليّ أن أرى أبي في أرذل العمر طريح الفراش لا ينام ليله من شدّة الألم، ولا ينام نهاره خوفا من النّدم، صعبٌ عليَّ أن أرى أمّي في مثل سنّه مريضة أنهكها التّعب ولكنّها ما تزال تطبخ وتغسل وتنظّف، صعبٌ عليّ أن أكون وحيدا غريبا فقط لأنّني أعيش وسط مجتمع لا يعرف كيفية الحفاظ على مبادئه وقيمه، كي يكون مُسلماً كما ينبغي عليه، بكلّ صدق، هذا صعب عليَّ، فإن كانت ابتسامتي هي كلّ ما أستطيع تقديمه لوالديَّ، فلن أبخلهما بذلك مهما كنت أتألّم بداخلي، مهما كان حجم الصراع الذّي يحتويني.

*** *** *** *** *** *** ***

يعتقد النّاس أنّني سجينة. أغلب ذلك الاعتقاد يأتي من حقيقة أنّني لا أخرج من غرفتي إلّا ليلا، ولا أخرج من منزلي أبدا. تركت الهواتف والحواسيب ولجأت إلى الكتب كوسيلتي الوحيدة للاتّصال بالعالم الخارجي الذّي لا أدري صراحة إن كنت أنا من نبذته أو هو من نبذني.

كلام النّاس لا ينتهي، كلامهم لا يرحم. قالوا أنَّ والدي الشّيخ الكبير حبسني في المنزل بعد أن فقدتُ عذريتي في سنّ الخامسة عشر. مضتْ سبع سنين والقصص لا تزال تُروى عنّي...

"أنابيس، الفتاة المنقّبة ابنة الشّيخ السّلفي المُلتزم عبد الله، زانية، عاهرة، منافقة، مثلها مثل كلّ المنقّبات"

لم تؤلمني صفاتهم عنّي بقدر ما آلمتني محاولاتهم لتشويه صور كل المنقّبات العفيفات عن طريقي فعل واحدة منهم مغلوبة عن أمرها. حاول أبي أن يقنعهم بالحقيقة أكثر من مرّة، لكنّنا كبشر تخلّوا عن نعمة العقل لأجل نقمة الجهل، نختار دوما أن نصدّق ما يناسب أهواءنا ويوافق اعجابنا بدل أن نقوم بالأمر الصحيح وإن كان اتجاه من نكره، وكم كانوا يكرهونني! لماذا؟ ببساطة، لأنّني قبائلية جميلة ذات عيون زرقاء واخترت النّقاب على التّعري وإظهار محاسني.

خسرتُ صديقاتي، خسرتُ شرفي، ودنّسوا شرف أبي وعائلتي، كل هذا بملايين الأكاذيب والقصص، لم تكفهم ألقابهم عنّي بالإرهاب والتخلّف والعصر الحجري والتشدّد في إبطال عقيدتي، فوجدوا ضالتهم في عفّتي، لأنّهم لم يرضوا بتصديق الحقيقة المرّة الوحيدة الّتي لا كذب فيها ولا بهتان، لأنّ الحقيقة، الحقيقة المؤلمة، الّتي لا زلت أحمل ذكرياتها وأعيشها مكرّرة، هي أنّني أُغتُصِبت.

أبي لم يحبسني يوما لأنّه يعلم الحقيقة ولا يمكن له أن يظلمني ولا أن يمسّني بأذى لا أستحقّه، فلطالما كنت منارته وفخره، يثق بي بقدر ايماني وحسن أخلاقي الّتي رباني عليها وأنعم الله بها عليّ قلبا وعقلا ومظهرا. أنا حبست نفسي. كنت أظنّ أنّني أحميها، لكن مع الوقت تصاعدَ خوفي من العالم الخارجيّ إلى أن أصبحتُ لا أطيق فكرة الخروج من أمن غرفتي، من حصن بيتي.

هذه الغرفة المليئة بالكتب هي ملجئي، وأبي، شيخي وتاج رأسي الحنون، يحضرها لي سواءً طلبتُها أم لا، لأنّه يعلم أنّني بحاجتها لأتناسى قليلا من ألمي، لأخرج بها إلى عالم آخر من الخيال بعيدا عن قوقعتي. فعلًا، كلام النّاس لا يرحم.

قد يتساءل الإنسان لمَ قد يريد أيّ شخص أن يغتصب منقّبة وهو مُحاط بكثير من الكاسيات العاريات صاحبات اللباس الضّيق والعطور الفيّاحة. في الواقع، كثير منكم الآن يشكّ بصدقي أصلا ويقول أنّني أستعمل قِيَم سِتري كحجّة ليصدّق النّاس براءتي، والإجابة هي: اغتصابي كان مكيدة.

في سنّ الخامسة عشر، بعد شهر من الحادثة بالتّحديد، جاءتني زميلتي من المدرسة لرؤيتي في المنزل، كنتُ قد تخلّيت عن المدرسة بأسبوع بعد ذلك الاعتداء لأنّني لم أعد أستطيع تحمّل نظراتهم المزرية ولا ألسنتهم اللاذعة، وهنا في غرفتي هذه بالذّات، أخبرتني زميلتي تلك بالحقيقة المَخفيَّة حول اغتصابي.

- أنابيس، أعلم أنّنا لا نحب بعضنا...

- أنت لا تحبينني، أما أنا فلا أكره أحدا. الحياة جدّ قصيرة كي أضع وقتا منها ولو يسيرا في كره بشر مثلي أنا أكره أفعالك، لا أكرهك أنت.

- حسنا...هل يستطيع أحد من أهلك سماعنا؟

- لا

أجبتها دون اهتمام وأنا أطالع كتابي بين يديّ، دون حتّى نظرة واحدة ناحيتها أو لمحة لملامحها. إيناس فتاة متحرّرة كما يقولون، مهما كان معنى ذلك. لم أؤمن يوما بهذا المصطلح لأنّه في قاموسي للتحرّر، أنا المتحرّرة، حرّة في اختلافي عن فتياتٍ تشبّهن بغيرهن، إمّعة تسير بهن الرياح أينما كنّ. لكن ما قالته صحيح، كانت إيناس تكرهني، تُحرّض الفتيات عليّ، تسخر منّي، تتكلّم بالإشاعات عنّي وتحاول

دوما خلق شجار معي كعذر لضربي وطرحي أرضا، لكنّني لم أنزل يوما لمستواها، وأعتقد أنّ هذا ما جعلها أكثر غضبا تجاهي، فلا شيء يستفز الجاهل أكثر من التجاهل، ولسخرية الأمر ذاك أفضل ردّ له أيضا. لم أعرف سبب حقدها عليّ، ولم آبه يوما كذلك، ولكن ما صارحتني به ذلك اليوم، نقلها إلى مستوى جديد من الانحطاط والتدنّي.

- أنابيس، مهما حاولتُ أن أنكر هذا إلّا أنّني دوما أدرك نفس الشّيء، أدرك سبب كرهي لك، حقدي عليك، عدم تحملي إيّاك أو حتّى قربك منّي. يفسد يومي فقط برؤيتك، بفكر أنّني أدرس معك.

- أنت تدركين أنّك تكلّمين فتاة تعرضت للاغتصاب، تركت المدرسة، وخسرت كلّ من كان قريبا لها، صحيح؟! لأنّ طريقة عزائك لي لا تُشعرني بأيّ تحسن إطلاقا!

تردّدتْ بعد ذلك بالكلام وانقطعت مخارج حروفها. لم تلبث لحظات قليلة حتّى بدأتُ أسمع صوت بكائها، لم أرها يوما تبكي! دائما تضحك وسط النّاس بوجه ماكر بارد كأنّ العالم قدّم لها كلّ مفاتيح السّعادة بين يديها. في الحقيقة، لم أعتقد قبل ذلك أنَّ لديها قنوات للدموع في عينيها! أربكني الأمر للحظة وفكرتُ فيما قلته لها لعلّ لساني زلّ بما كان سببا في نواحها ولكنّني لم أجد إلّا خيرا، وبقدر ما أردت أن أتصنّع البرود والقوّة أمام من كانت تعتبرني عدوّتها إلّا أنّني فشلت بطبع طيبتي، ولم يبقى لي حيلة سوى أن قمتُ من فراشي واحتضنتها، فقالت لي بصوت متقطّع:

- دعيني أكمل لك حديثي، ثمّ لك الحرّية فيما تريدين فعله، عناقي أو طردي.

لا أنكر أنني بدأتُ بالبكاء أيضا، فأنا حسّاسة بطبعي، وصدّقوا أو لا تصدّقوا، لقد ورثت ذلك عن أبي وليس من أمّي.

- الحقيقة هي أنّني كنتُ أغار منك.

جلستْ على حافّة السّرير وكلتا يديها على وجهها المحمرّ المبللّ كأنّها تحاول أن تنسى أنّني هناك كي تبوح بالحقيقة دون أيّ خوف من ردّة فعلي، ثمّ أكملت قولها:

- كنت أغار منك بشدّة، رغم أنّك منقّبة إلّا أنَّ عيناك أظهرتا أنَّ ما خفي من جمالك أعظم. عشِقَك الجميع، حتّى أمّي! حاولتُ أن أصبح مثلك لكنّني لم أستطع أن أتخلّى عن محاسني، فمن سيعجب بي من غير ذلك وأنا أكره كلّ شيء داخلي حيال نفسي؟! لم أفهم الأمر، كنتِ دوما سعيدةً رغم أنّك كنت دائما وحيدة! تأخذين أعلى الدّرجات وتظفرين بالمراتب الأولى! تحوّلت غيرتي لحقد، وحقدي لكره، والكره زاد من بشاعتي، فكرهي لك أصبح سببا في كره نفسي. لم أستطع النّظر في المرآة دون أن تمرّ صورتك بين عينيَّ، فأرى نفسي بشعة مهما ارتديت، وأزدادُ تعاسة كلّما مررت جنبي مهما ضحكتُ أو تضاحكت، كنت أموت داخلي، أموت داخل جسدي، لم أعد أحسّ بنفسي، وكلّ ما أحسست به هو الغضب، تكلّمت عنك بالسّوء، سخرت منك، بل سخرت حتّى من النّقاب ومن ديني، من إسلامي. طالما قلت لنفسي وللآخرين أنّك تعتبرين نقسك أفضل منّا، لكنّك لم تفعي يوما، لا قولا ولا فعلا. أردتُ التّغير، أردت أن أقترب منك، أن أترك كلّ ذلك ورائي، أن أصبح مثلك لعلّي أتفوّق عليك أو حتى أصبح أحسن منك، ربّما صديقتك...ثمّ...ثمّ...

انفجرت بالبكاء من جديد، وعلا شهيقها. أحطّتها بين يديّ واحتضنتها لصدري مخافة أن تسمع أمّي عويلها، ثمّ همست لها بلطف:

- لا بأس عزيزتي. تلك لم تكن أنت، طالما أنّك تريدين التغيير، يعني أنّه ما زال في قلبك ضمير. أنا لستُ الوحيدة، وأنا لم أكن يوما وحيدة، الله دوما معي.

- أنا سبب اغتصابك!

صرختْ بها فجأة وكأنّ الكلمات انفجرت منها رغما عن لسانها، وكأنّها ضمادة أرادت نزعها بسرعة كي لا تشعر بألمها. قفزتُ من مكاني، ودفعتها بعيدا عنّي...

- ماذا؟! ماذا تقولين؟!

- أنا...حبيبي "بيتّا"، بيتّا الّذي بنيت جبالا من الذنوب باسم الحبّ لأجله، بيتّا الّذي ارتديت ما يعجبه، الذّي اهتممت به فقط، كقصة خيالية لا شيب فيها ولا موت ولا حساب، لا بشرفي ولا بسمعة إخوتي ولا بسوء خاتمتي، فقط هو. كنت دوما أشتمك وأُعيبك حين يكون معي خوفا من أن يتوجّه بنظراته إلى عيونك ولكن لم يزده كلامي الدميم عنك إلّا فضولا تجاهك، وبالنهاية تحرّى عنك وعن عائلتك ثمّ فجأة من العدم، صُدمت بقراره في خطبتك وانفصاله عنّي، بيوم كنت معه بغابة القرية أشبع مطالبه، وبيوم بعده يخطّط للارتباط بك...بعد كلّ ما قمت به لأجله، ما فعلته معه، ما ضحيت به لأجله! غضبت منك وأردت أن أثبت له أنّك لست الفتاة الكاملة الّتي تظهرين عليها، أردت تحقيق ذلك بأيّة وسيلة...

لم أدرك ما كان يجري حولي، كلماتها ضربت رأسي كمن يضرب سندانا بمطرقة. شعرت بالغثيان والدّوار، ولم أكن قادرة على استيعاب حجم البشاعة الّتي يمكن أن تنمو في نفس البشر لتتحوّل إلى رغبة في أذيّة الآخرين.

- دفعت المال لشخص عرفته عن طريق الانترنيت، دفعت له مبلغا كبيرا بعد أن سرقتُ حليّ جدّتي وبِعته. أخبرته عنك... كلّ ما أردتُ منه هو أن يتبعك بعد المدرسة في طريقك للبيت ويجبرك على أخذ صورٍ معه بأيّة طريقة، أطلعتهُ على القرية، وعلى الطّريق الّتي تسلكينها للعودة إلى منزلك. أردتُ تلك الصّور فقط لأُريها لبيتّا، لعلّه يعدل عن رأيه عنك، لكن ذلك المتوحّش تمادى بالأمر واغتصبك بعنف، وكان فخورا بعمله لدرجة أنّه أرسل صُورك لي وأنت...بحالتك تلك، ولم يشبع جوعه بك، بل ابتزني في خوفي من شراكتي لجريمته ليأخذ نصيبه منّي أيضا ورضخت لمطالبه كالعادة، فلم يكن لديّ شرف لأحافظ عليه من البداية. لم يكن لدي صورٌ لك غيرها، وارتأيت إلى أكمل خطّتي بما أنّني قدمت كلّ شيء لأجل تحقيقها، فأريتُ بيتّا ما كان على هاتفي. صحيح، عدّل عن رأيه تجاه خطبتك، لكنّه أشاع خبرك للجميع أيضا، ثمّ خانني مع فتاة أصغر منّي في الصّف الأوّل...

لم أكن أنظر إليها، ولكنّني أحسست بنظارتها تخترق وجهي أسفا. لم أستطع تحريك جسدي، أحسست بالألم كلّما حاولت أخذ نفس يعينني على الحركة، شعرت بالغثيان والرغبة في الاستفراغ.

- لم آتي هنا لطلب المغفرة، فأنا لا أستحقها ولكن...

كان ذلك آخر ما سمعته قبل أن يغمي علي. لا أتذكّر كثيرا ممّا حصل بعد ذلك، سوى أنّني استيقظت في المستشفى. كان أبي جواري يبكي، ولكنّ يبتسم لي ويطمئنني عن حالي، وأمّي جنبه صامتة لا تقدر على رفع رأسها لتقابل عيوني. هناك استشعرت بوجود خطب ما، وبعدها أخبروني عن سبب غثياني واغمائي، بأنّي حامل.

أبي كان يهدّأ من روعي ويقول مرارا وتكرار "أصبري، أصبري، سيُفرج الله بفرجه ويحكم بحكمه". كنتُ أعرف أبي كمعرفتي لكفّ يدّي، دوما يقول هذه العبارة حين يكون خائفا، ولديه كلّ الحق ليكون. القرية تكرهني الآن بما يكفي، تصعّب حياتنا لإشاعة كما تشتهي، فماذا سيفعل أهلها حيت يرون طفلا رضيعا بين يديّ؟! لا أحد يريد الزّواج بمطلّقة بهذا المجتمع الإمّعة، بما بالك بوالدة عزباء. جذبته من يده كي ينحني على سريري حتّى بلغت صلعته شفاهي وقبلتُ جبينه ثمّ ابتسمت مرغمة وقلت لهما:

"قدر الله وما شاء فعل".

رُزقت بطفلة، وهي الآن في السّابعة من عمرها. مختلفةٌ جدّا عن باقي الأطفال، وتُشبهني في كلّ شيء إلى حدّ كبير كأنّها نسخةٌ مصغّرةٌ عنّي. تربَّت بين هاته الجدران على يديّ أنا ووالديّ، وأنبتها الله

نباتا حسنا على خُلُقٍ عظيم وجعلها لنا كنسمة هواءٍ منعشةٍ في عزّ الصّيف. هيَّ الآن مصدر سعادتنا وسرُّ تماسكنا وصبرنا.

إيناس...بالطبع سامحتُها، سامحتها منذ أن وضعوا رضيعتي على حضني. لم يكن العفو هيّنا بتلك البساطة والله تعالى أعلم بذلك ولهذا جعل للصفح أجرا عظيما، كما أنّه من ستر مؤمنا في الدنيا ستره الله يوم القيامة. بقول ذلك، جعلتها تعدني بأن تتغيّر للأفضل ووعدتني أنّ المرّة التّالية الّتي سأراها فيها، ستكون فيها إنسانة تائبة...لم أرها منذ ذلك الحين إلى حدّ الساعة.

"قدر"، ذاك هو الاسم الّذي منحته لابنتي، لأنّني آمنت بشدّة أنّ الله يبتليني، وكان هذي قدره. آمنتُ أنّ الفرج قادم وأنّ لكلّ شيء يحدث سببا، أنّ ربّي خلقَ كلّ شيء بقدر، وما دمتُ مؤمنة به لا أعصيه، فالله لن يُؤذيني أبدا. آمنت بأنّ كلّ ما حصل لي له غايةٌ محدّدة، كلّ ما حصل معي هو رعاية منه بطريقة ما، بدايةً بأنّه أبعد "بيتا" عنّي.

"قدر"، كما سبق وذكرت، مختلفةٌ جدّا عن غيرها. لم تعذّبني يوما، لم تُتعبني خلال نموّها، لم تبك ليلها، لم ترفض أكلها. ربّما إن احتسبنا تغيير الحفّاظات عذابا، ولكن ذلك العذاب كان من نصيب أمّي دوما، أنا نجوت.

كانت صديقتي، بالرّغم من صغر سنّها إلّا أنّها كانت تؤنّسني، قليلة الكلام والمطالب، كثيرة المشاعر والحياء، كانت مثلي...كأنّني أنجبتها وحدي.

كل ليلةٍ تدخل غرفتي ثمّ تستلقي جنبي على السّرير وتضعُ وجهها النّاعم المُخدّد على ذراعي بينما أنا أقلّب الصفحات، فأرفع صوتي قليلا بما يكفي لها لتسمعني، بكثير من الأحيان لا أدرك الأمر حتّى أراها نائمة على حضني في سلام. لم أشعر يوما بالكره أو التّعاسة أو الإحباط أو حتّي الملل طالما هي جنبي. أحيانا، بعد أن تنام، كنت أغلق كتابي وأحدّق فيها لساعات طوال، أراقبها وهي نائمة، أتنعّم بتلك الأنفسُ النّاعمة الطّاهرة الّتي تخرج من تلك الشّفتين الورديّتين وذاك الأنف الصّغير، أداعب شعرها الغثيث وأبعد خصلاته عن وجهها حين تتقلّب حول ذراعي بحثا عن الجزء البارد من أعلى ساعدي، لا أشعر بغير السّعادة آنذاك، في تلك اللحظات، لا يشدّني غير الأمل. هي نعمة أحمد الله عليها للأبد، وحتّى "الأبد" لن يكون حمدا كافيا لنعمة مثلها.

# الفصل الثاني

لم تكن صعبة عليّ الوحدة بقدر ما كان صعبا عليّ أن أكون وسط أناسٍ لم يشعروني بغير الكره من غير سبب، كلّما أخرج من منزلي أواجه نفس نظرات الحقد، نفس الشّتائم، نفس الاختلافات ومحاولات الشّجار، من أطفال وشيّان أذكر كيف كنت أُدَرّس كلّ واحد منهم. كيف كان آباؤهم يطرقون عليّ الباب في أنصاف الليالي طالبين منّي أن أنجد فلذّة أكبادهم في امتحانٍ عاجل أو واجبٍ، وبابي كان مفتوحا دوما لهم. لكن الآن، لا هم ولا آبائهم يطيقونني، لا تفهموني خطأ، أنا لا أندم على مساعدتهم، ولا أتفاخر بها أيضا، فمن الواجب أن نقوم بالخير فيمن يذكره أو ينساه، لأنّ أجرنا عند الله، ولكن الأمر فقط...مؤلم.

"سراج الدين، إلى أين أنت ذاهب في هذا الحرّ؟"

سألني جاري "عبد الغني" .شيخ كبير متشرّد في حيّنا. مثلي مثله، الجميع يكرهه ولا أحد يحيّيه أو يردّ عليه التّحية، إلّا أنّ وراء كُرههم له قصّة، فهو كان بالماضي طبّاخا ماهرا، لكن سكّيرا ومُقامرا. في مرحلة ما، خسر كلّ شيء، من وظيفته ومنزله إلى عائلته بأكملها. ذهبت زوجته، رغم كبر سنّها، إلى بيت أختها لتبقى معها. أمّا أبناؤه وبناته، فكلّ منهم تفرّق في جهة مختلفة بحثا عن حياة كريمة دون عار يلاحقهم من الماضي. رغم أنّه لم يسمع عنهم خبرًا منذ سنوات عديدة، إلّا أنّه يحكي لي دوما عنهم وعن قصص طفولتهم. كان واضحا أنّه يشتاق إليهم، أقسم لي وصارحني بأنّه قد أقلع عن الخمر والقمار، ويبدو أنّني الوحيد الّذي أبصر صدقه.

- كالعادة عمّي عبد الغني، أبحث عن عمل. (أجبته بابتسامة)
- لقد بحثتَ في المدينة بأسرها، ألم تتعب بعد؟!
- أفضل من البقاء داخل البيت.
- تعال وأعِدْ صينيّة الفطور للمنزل وأشكر أمّك بدلا عنّي.
- دعها عمّي عبد الغني، سآخذها لاحقا مع صينيّة الغداء عندما أحضر لك العشاء الليلة.
- حسنا ابني، انتبه على نفسك وابق بعيدا عن الحر، وفقك الله في مسعاك.

منزلنا واسع، لكنّه غير مقسّم، بحيث أنا نفسي أنام في الرّواق، ولو كان لنا غرفٌ إضافيّة لأسكنّاه معنا. بدل ذلك، تكفّلنا بأكله ولباسه وفراشه، وهذا ليس تفاخرا، بقدر ما هو إجابة عن تساؤل أحدكم. على كلّ حال، لقد كان محقّا، لقد بحثت في المدينة كلّها عن عمل واحد ولم أجد شيئا، ولقد تعبت بالفعل. كان أملي الوحيد هو البحث عن عملٍ خارج المدينة ولكنّني لا أستطيع ترك والدايَ لوحدهما، منذ ثلاثة أشهر وجدت نشرة إعلانيّة رمتها الرّياح في وجهي عن تكوينٍ مهنيٍ في صالة بناء الأجسام. بما أنّني نحيف وكنت سأدخل للصالة في وقت من حياتي على أيّة حال، انضممت لذاك التكوين على أمل أن أحصل على عمل وفرصة للتدريب كذلك، كأن أضرب عصفورين بحجر واحد. واليوم في الواقع هو يوم استلامي للشّهادة. لم يكن أمرا يستحق الفخر أو السّعادة كي أخبر به أهلي، ولكنّه أفضل شيء حقّقته منذ تخرّجي من الجامعة، كما أنّه منحني شعورا مزيّفا بأنّني نوعا ما أفعل شيئا بحياتي لمدّة ثلاثة أشهر، ولقد أعجبني ذلك الشعور، شهور الإنجاز.

الأمر المُثير للغرابة هو أنّك حين تكون في الثّانوية أو المدرسة الإعدادية، لا تهتم كثيرا بالمستقبل لأنّ دائما ما كان هناك عام آخر من الدراسة، عام قادم لتقلق بشأنه بدل المستقبل. أمّا الجامعة، ففور ما تبلغ الفصل النّهائي وتدرك أنّه بعد هذا العام الأخير لا توجد دراسة، تصدمك الحياة بقوّة، وكلّ ما يمكنك فعله هو عدُّ الأيّام وترديد " اللهمّ استر"، لأنّه لا فكرة لديك عمّا ستفعله بعد ذلك، وكلّ تلك السنوات المضنية من الدراسة لم تحضّرك لأيّ شيء فعلا.

عندما تنتهي الجامعة تحسّ كأنّك طُردت، كمن يطرد كلبا بطريقة لطيفة، يُخرجك من الباب، يرمي لك عظمة (الشّهادة) ويقول "اذهب والتقط يا فتى" ثمّ يغلق الباب خلفك بسرعة وتجد نفسك في

الشّارع...تستيقظ على الواقع. واقع أنّ جميع الموظفين قد أوقفوا مسارهم العلمي منذ مدّة طويلة. انسان ناضج عقليا وسط جهلاء يدّعون الثقافة والدهاء بأخلاق الشوارع ونزواته.

أخذت شهادتي في بناء الأجساد، رأيتهم جميعا سعداء، وقد بدت ضحكاتهم حقيقيّة، نابعة من القلب، من تفاؤل حيال الغد، وتساءلت داخلي إن كان منهم من كانت ابتسامته مجرّد ستار مثلي، يضعها صباحا كما يضع ربطة عنقه أو كمن تضع حجابها. سمعتُ شابّيْن من أصحاب الأجسام الحديديّة الضّخمة يتكلّمان عن فتح صالتهم الخاصة. أكادُ أقسم أنّ ذراع أحدهم تزن ضعف وزني، ورغم حسدي لهما لصداقتهما، إلّا أنّ تلك الأجساد المثالية أفسدتها الأخلاق الدميمة، أحدهما يبصق على الأرض كلّما مرّ به أحدٌ كإثباتٍ لقوّته بصمت الناظرين، وآخر لا يكاد يتكلّم جملةً واحدة دون أن يضيف إليها شتيمة تزيد من بلاغة البراهين لتثبت جهالة قوله. أعتقد أنّ لا أحد منهما قد حاول بناء عقله خلال كلّ تلك المدّة التّي قضياها في بناء عضلاتهما.

لم أكن يوما شخصا اجتماعيا، ولا أقول أنّني انطوائي كذلك، لكن ضعني في مكان محتشد وسأجد زاوية منه لأنعزل بها وحدي بعيدا عن الجميع. نظرت حولي ولم أجد إلّا كرسيّا مهترئا بالخلف تفاداه جميع الحاضرين، كانت أرجله ملتحمة معا بشريط لاصق رماديّ مغبّر، فجلستُ عليه سعيدا متفاخرا بنحافتي أمام كلّ تلك الأطنان والكيلوغرامات الواقفة، فهذا الكرسي لن ينكسر بي أبدا.

**"هل يمكنني أن أجلس؟"**

فاجأتني فتاة بسؤالها. لا أستطيع أن أصف جسدها، ولكن أستطيع وصف الرّؤية بعد أن وقفت أمامي بكلمة واحدة...منعدمة**!** ممّا جعلني أتساءل عن رشاقتها لأنّها ظهرت من العدم. كانت تحمل نفس شهادتي وعلى وجهها نفس ابتسامتي.

- طبعا، تفضّلي. (أجبتها بينما هممتُ أنا بالوقوف)
- لا، لا تذهب، أنا أحتمل الرّفقة**!**
- الكرسي لن يحتملها. (قلت في نفسي ثم توجهت بالكلام إليها)
- لا بأس، كنت على وشك المغادرة على أيّة حال.
- ألن تبقى للحفلة؟**!** (سألتني بينما جلست مكاني)
- أيّة حفلة؟**!**
- حفلة تخرّجنا، سيكون هناك موسيقى وحلويات...
- بقدر ما أحب الجزء الأخير المتعلّق بالحلوى إلّا أنّني أكره الجزء الأول كثيرا ولا يناسب قرارات حياتي. (أدرت ظهري للرحيل)
- هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟ (قالت لي بصوت خافت)

لا أنكر أنّني أجد نفسي في مثل هذه المواقف كثيرا على الرغم من نحافتي، ربّما بسبب ابتسامتي الدائمة أو بلاهتي المستمرّة. كان الأمر يعجبني بالماضي ولكن بعد أن تغيّرت طباعي وتوجهت لله بتوبة نصوحة، أصبح الأمر محرجا قليلا ومثيرا للخوف بنفسي بمدى ضياع أمّتي وأنا على غير استعداد للحساب.

- لماذا أنت صامت؟**!**
- دون سبب، كنت أتساءل فقط...
- تتساءل لماذا أريد رقم هاتفك؟**!**
- لا، ذاك واضح وضوح الشمس، لكن أتساءل كيف رأيتني على هذا الكرسيّ الصّغير في الخلف بين كلّ هذه الجدران البشرية.

- لقد لاحظتك قبل ذلك، خلال الأيّام الأولى. أذكر أنّهم كانوا يتكلّمون عن عضلاتهم وتمارينهم الشاقة، يتفاخرون بها تارة ويتحرّشون بنا تارة أخرى، بينما كنت أنت تقرأ كتابا في الخلف بعيدا عنهم. صحيح كانوا هم أكبر حجما ولكنّك بشكل ما كنت تظهر أكثر نُضجا، وهذا غريب مع وجهك الصبياني هذا.
- دفاعا عن نفسي، لقد كنت بالخلف لأنّه لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يتحدّثون فيه، وذلك الكتاب كان أكثر من رائع!

ضَحِكَت قليلا ثمّ وضعت يديها تحت فخذيها، سكتت قليلا ثمّ قالت:

- أنت لن تعطيني رقم هاتفك، أليس كذلك؟!
- لا. صدّقيني، أنا لست من نوعك.

أجبتها، ثمّ أضفت بنفسي: (ولست من نوعي كذلك، من سيكون رجل البيت، أنت أم أنا؟!) حافظت على درع صمتي كي لا أفتح فمي بشيء غبيّ كما كنت أحدّث به قلبي يفكّر، حتّى لاحظت تتردّد نظراتها خلفي، وحين وجّهت عيني ناحية بصرها أدركت أنّ صديقاتها يراقبنها من بعيد.

- هل لديك حبيبة؟
- لا، لكن في الحقيقة، رغم أنّه لا يظهر علي، أنا أقرب للسلفيّ أكثر مما أنا أقرب لهؤلاء، لكنّه يوم حظّك، لأنّني سأعطيك شيئا أفضل!

ابتسمت لها وأخرجت من حقيبة ظهري نفس الكتاب الّذي لاحظتني لأجله، بعنوان "في قلبي أنثى عبرية" مستوحى من قصّة حقيقيّة غيّر حياتي، وكتبت لها بأوّل صفحة من الكتاب على أمل أن تسامحني كاتبته:

"يمكنك أن تخبري صديقاتك أنّني كتبت رقم هاتفي هنا كي لا يُحرجنك برفضي. عادة، القراء لا يفكّرون بتقديم الكتب كهدايا، فقط باستلامها، وسيضحكون من فكرة إقراضها لشخص ما فما بالك بمنحها. أنا متأكّد من أنّ معشر القرّاء سيلعنونني، لكن أتمنّى أن يجعلك هذا الكتاب ترين عالما أصدق من عالمنا بعيدا عن زيف المظاهر وزينة المخادع"

أغلقت الكتاب ومنحته إياها ثمّ مضيت في طريقي. كلمة "شكرا" هي آخر ما سمعته منها وسط كلّ ذلك الدوج، رفعت يدي خلف رأسي ملوّحا لها وأكملت طريقي عودة للبيت حاملا خيبة يوم آخر دون وظيفة أو عمل.

*** *** *** *** *** *** ***

لم أكن حزينةً أو مختنقةً على الإطلاق. في الحقيقة، كنت سعيدة بحياتي راضية بها. أبي من جهة أخرى، كان خائفا. صحيح أنّه كان مؤمنا بالقدر شرّه وخيره ولكنّني ابنته، مهما كان سيظلّ متخوّفا علي، هذا ما يميز الآباء للإناث، لن تجد الفتاة رجلا يخاف عليها أكثر من أبيها. أعتقد أنّ السبب هو كبر سنّه واقتراب أجله كونه الوحيد الّذي يعيلنا. خائف من أن يترك وراءه عائلته الصغيرة، زوجته العجوز وابنته المغتصبة وحفيدته الصّغيرة، دون حامٍ ولا معيل، ولكنّي أؤمن أن الله هو كلّ ذلك وأكثر، أؤمن أن لله خطّة أكبر.

أحسست بثقلي على صدر والدي. أقوم ليلي كلّ ليلة طالبا راحة البال لأجله والمغفرة لأجلي، فحتى إن كنت قد تعرضت للاغتصاب دون حول منّي ولا قوّة، لا زلت أحس بالذّنب لأنّني كنت جزءًا من العملية. أبي يقوم ليله داعيا الله للفرج والزوج الحلال لي الّذي سيتفهّم وضعي ويتقبّل قدر معي، أمّا أمي فقد كانت سعيدة لأنَّ لديها رفقة في المنزل وخاصةً أنّ قدر لم تكن سوى نعمة.

- عزيزتي أنا خارج، هل أنت بحاجة لشيء ما؟ (سألني أبي بابتسامته الحنون الّتي زادتها لحيته نورا وبهاء)
- ممم... (تظاهرت بالتفكير)
- حلويات؟ كتاب جديد؟ مثلجات...؟
- لا، لا أعتقد ذلك، لا أحتاج شيئا، لكن إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى المدينة، سأضع إعلانا في الجريدة أبحث فيه عن مساعد في العمل.
- هل ستذهب قدر معك؟
- لا، الحر شديد وهي لا تحب اكتظاظ المدينة نهارا كما تعلمين.
- أين هي؟! لم أرها منذ ساعة.
- نائمة على طاولة المطبخ. أمّك وضعت شريط القرآن لتستمع إليه بينما تحضّر العشاء، وأنت تعرفين قدر، تنجذب للقرآن كما تنجذب اليرقات للنور، تسترخي، تستمع، ثمّ تنام أينما وجدت متّسعا لحجمها الضئيل. (أجاب مبتسما ثمّ أضاف بنبرة معنويّة)
- أنت تدركين أن لديك معجزة، صحيح؟
- لدينا معجزة، نعم. (فهي ابنتي بقدر ما هي حفيدته)
- حسنا، أنا ذاهب!
- في رعاية الله أبي...

كنتُ أفهم بضع أشياء من كلام أبي ونبرته حتّى وإن كان يحاول اخفاءها. فمثلا، طريقة سؤاله "هل أنت بحاجة لشيء ما؟" تعني أنّه مفلس، فلو كان لديه مال لحدّد سؤاله من الأول كما فعل في السّؤال الّذي تلاه، فيسأل بدل ذلك: "هل أنت بحاجة إلى كتاب؟" بنبرة واثقة من وجود المال في جيبه. مفلس أم لا، سيمر بغرفتي ويسألني كي لا يُشعرني بأنّني عبء يحاول نسيان وجوده بيت أسوار بيته. أمّا بحثه عن عامل في الجريدة الوطنية، يعني أنّه يريد عاملا لا يعرفنا، أو بالأحرى لا يعرفني، ولم يسمع يوما بالقصص الملفّقة عنّي، ما لم أكن أفهمه هو كيف سيدفع له إن كان بالفعل مفلسا؟!

لابد أنّني غفوت بينما كنت أطالع، لأنّني استيقظت على صوت أمّي تهمس بأذني:

- أنابيس حبيبتي، لقد حان موعد صلاة العصر، استيقظي يا كسولة.

ابتسمت فور رؤية وجهها المريح. حككتُ عيناي كطفلة صغيرة مدلّلة ثمّ احتضنتها لمدّة طويلة. كان ذلك من أجمل الأشياء في أمّي، فهي لن تُبعدك عن حضنها حتّى تُرخي أنت ذراعيك حولها، كانت تعطيك

كلّ الوقت الّذي تحتاجه، كانت تعلم أنَّ حضن الأمّ هو أكثر بكثير من مجرّد أجساد متقاربة، كان دفئا وسلاما، كان شفاء.

- لابد من أنّني غفوت، لا أفهم كيف أتعب إلى هذا الحدّ وأنا لا أقوم بأيّ شيء، هذا محيّر!

- ذاك لا يحيّرني بقدر ما يحيّرني كيف أنّك رزقت بطفلة، طوال اليوم مستلقية، لا تأكلين كثيرا، لكن بطريقة ما حافظت على رشاقتك، بينما أنا، أتذوّق الحساء لأعرف مقدار الملح فيه، فيزداد وزني!!

أحب أمّي، أنا حقا أفعل. الجميع يحبّ أمّه لكن ليس بقدري، فليس كلّ أنثى تلد تستحق الأمومة، فقد كانت أمامي درعا تحميني من كلام أهلها، وكانت خلفي تحرس على ألّا أسقط حين تشتدّ عليّ عواصف الإهانة، وجنبي تطعمني قبل أن يدخل طعام فاهها، بكيَتْ لحزني، وبكيَتْ لفرحتي، تهتم بالجميع قبل أن تنظر لحالها، حتّى في الصّلاة توجّه كلّ دعواتها لنا.

كانت قدر تصلّي معنا في غرفتي، حتى إنّها تقوم قليلا من الليل أحيانا، لكن لسبب ما كانت تحبّ صلاة الليل في الرّواق بدلا من غرفتي كي لا يراها أحد، وكنت أتحسّسها من حين لآخر فقط كي أتأكّد من أنّها لم تنم فوق سجادة الصّلاة كعادتها.

أبي وأمّي تزوّجا زواجا إسلاميا تقليديا، لم يعرفا بعضهما قبلا ولكن بعد زواجهما اكتشفا شيئا مشتركا بينهما، حبّهما لله ثمّ الجّنة، ومن تلك النّقطة، تعلّما أن يقوما بكلّ شيء معا. صدقَ من قال:

"وإن كنت لا تزال تبحث عن تلك الفتاة الجيّدة، لا تجرِي وراءها وتطاردها، بل ابحث عن الله أوّلا، لأنّك حين تجده، سيضمن لك إيجادها."

سافرا معا، ضحكا معا، بكيا معا مرارة وفرحا. تزوّجا في سنّ مبكّرة جدًّا، أبي كان في العشرينات من عمره وأمّي كانت أقلّ منه بعامين. لم أسمعهما يوما يتشاجران، ولم يعلو صوت أحدهما على الآخر مرّة. أعتقد أنّ حبهما لبعضهما كان أشدّ من أن يتم المخاطرة به بكلمة عشوائية تقذفها الظروف، ولم يفترقا يوما، لا نهارا ولا ليلا. حين يجرح أحدهما الآخر، لا يغضبان كما يفعل بقيّة الأزواج الّذين يباشرون في تقليب صفحات عيوب بعضهما، والتوغل في كتاب الخيبات والمخاوف للتذكير بوجودهما. والداي يحزنان بشدّة، كلّ مرّة وكأنّهما يختلفان لأوّل مرّة...كيف له/ لها، جرحي هكذا؟!

كان لكلاهما سلاح في مثل تلك الحالات النّادرة، فأبي سلاحه الصّمت، لا يتكلم ولا يتفوه بأيّ شيء، يعزل نفسه بعيدا عن الجدال ليترك لأمّي مجالا للتفكير بالمنطق الثابت لا المزاج المتغيّر، إلى حين تدرك خطأها فتأتي إليه على استحياء وتتملّقه بالحنان والإهتمام. تحتضنه من الخلف وتحيط ذراعيها حول صدره، ثمّ تبدأ بالكلام وكأنّها صبية لم يمضي من عمرها في الحب سوّى أيّام:

- يا جميل، عبد الله يا جميــل، هل لا زلت غاضبا منّي يا جميلي؟ حبيبي، لا تغضب منّي، تعلم بمدى حمقي حين يتغيّر مزاجي، أنا حمقاء والله. عبد الله...يا جميــل، إذا لن تسامحني الآن وفورا فلن أتحدث معك أبدا، ولكن إن كسرت صومك وصمتك، فسأطهو لك البطاطس المقلية، مقرمشة كما تحب وترضى، سأطبخ صحنين منها حتّى تّصاب بالتخمة!

أبي يحب البطاطس المقلية أكثر من أيّ أكلة أخرى، منذ صغره وهو يكثر منها. يحب أن يحمل كلّ قطعة على حدا ويغمسها في الفلافل المهروسة، ولكنّ الطّبيب منعه عنها منعا باتّا.

- نعم، أنت حمقاء!

هكذا يُجيبها أبي دوما دون أن يدير رأسه إليها، بصوت خافت كما لو أنّه يحاول إخبارها أن تدسّه أكثر بغية مسامحتها، فتجذبه أمّي من خديْه الملتحيين وتدير رأسه إليها غصبا ثمّ تقول:

- حمقاء صحيح، ولكنّك تحب هذه الحمقاء، والآن هل ستساعدني في تقشير البطاطس أم لا؟

أكل الزّمان جسدهما وترك قلبهما كقلب واحد يضخ بالحب يُفعا وكأنّهما لم يكبرا بلحظة منذ أوّل ليلة لهما معا. الآن دور أمّي، حين يُغضبها أبي فهي تكسرُ كلّ آنية في المطبخ وتصرخ مرتعبة حتّى يظنّ الجار أنّها تحت طائلة التعذيب، تجذب شعرها وتقتلعه من جذوره ثمّ...أنا أمزح! لا أصدق أنّكم كنتم على وشك تصديق هذا! لكن لا ألومكم، فنحن النّسوة مجنونات. الحقيقة، سلاح أمّي الوحيد هو الدّموع الصّامتة. تطأطأ رأسها وتدلف ناحية غرفتها ثمّ تغلقُ الباب خلفها، تصعدُ فوق الفراش وتضمُ رجليها لوجهها بينما تعانق وسادته وتبكي عليها في سكون. بعد عدّة دقائق، تستطيع سماع أبي يطرق بابها ويدخل وراءها، يقترب إليها ببطء ثمّ يرفع رأسها بأصابعه من تحت ذقنها، فتغلق عينيها مباشرة كي لا تراه يراها تبكي، فيمسحُ دموعها ويقبّل عينيها ثمّ يطلب منها أن تسامحه حتّى وإن لم يكن يعلم بخطيئته. لا أعتقد أنّ الرجال يدركون ما الّذي ارتكبوه خطأ بالتحديد، يلاحظون انزعاجنا فيشكّون بوجود خطب ما ثمّ يعتذرون لأجله من غير علم به بتاتا، وينجحون في ذلك كثيرا. كان والدي من غير حول ولا قوّة أمام التّصرفات الصّبيانية والبكاء الساكن، كانتا نقطة ضعفه الّتي تعيده إلى رشده دوما، ولم يكن يكتفي بطلب الصفح فقط، بل يخرج لشراء شيء حلو تحبّه ليطعمها إياها بيديه. أنا لا أفكّر بالزّواج كثيرا، ولكن إن كتبه الله لي، فتلك الأسلحة هي ما سأستخدمه على زوجي، لم أرها تخطئ التّصويب ولو لمرّة!

هذه الليلة لم أكن أشعر بالجوع، فبقيت على فراشي أقرأ رواية إنجليزية بعنوان "ثلاثة أسابيع مع أخي" حتّى سمعت طرقا على الباب.

- عزيزتي، هل يمكنني أن أدخل؟

- طبعا أبي...

دلف أبي ناحية سريري قائلا:

- لقد كنت ألعب لعبة الألغاز مع أمّك وقدر. للأسف، لقد خُدعت وهُزمت من قِبَل أمّك، وهي لم تتوقّف منذ ذلك الحين عن الضّحك ومحاولة إزعاجي، لهذا أتيت إليك هنا لتواسيني، فهُما لم تُظهرا أيّ رحمة أبدا

ضحكتُ وتنحّيتُ له جانبا ليستلقي، فتمدّد قربي وغطّى نفسه باللحاف. باشرت مطالعتي في صمت بينما اكتفى هو بإغماض عينيه بحثا عن قليل من الراحة، وكان هذا من حسن حظّي لأنّني بدأت فجأة بالبكاء. هل حصل وأن كنتم يوما مع شخص تحبّونه بشدّة، ثمّ فجأة قفزت لأذهانكم واقعية الحياة، وأدركتم أنَّ هذه اللحظة مهما كانت بسيطة ستكون مجرّد ذكرى عابرة لن تتكرّر يوما مرّة أخرى؟! فكّرت في نفسي أنّه بيوم من الأيّام سيختفي والدي...سيموت، وهذه اللحظة بالذّات، هذه اللحظة البسيطة الخالية من العواطف، أنا وهو فقط، دون صوت أو حركة، ستكون ذكرى مؤلمة لي كلّما انبسطت على فراشي وأتذكّره مستلقٍ محاذاتي، لكن لا أراه. دائما أحمد الله على عائلتي، فحتّى إن مات أقرب النّاس إليك فأنت لن تخسره فعلا حتّى يخسر أحدكما الجنّة أو كلاكما، أمّا غير ذلك، فلكما في نعيم الله لقاء لا حنين بعده. أحمد الله على نعمة الإسلام وعلى عائلتي المتواضعة السّاعية لنيل رضاه.

بعد حوالي نصف ساعة من ذلك، سمعتُ وقع خطوات قدر وأمّي بالرّواق، تقترب أصواتهما من غرفتي شيئا بشيء، فمسحت دموعي بكمّ قميص نومي على عجلة قبل دخولهما عليّ، وما إن فعلتا حتى ركضت قدر ناحيتي ورمت نفسها عليّ لتعانقني.

- أيها الخاسر، أنت مختبئ هنا! (قالت أمي)

- أنا لم أخسر، ولكنّني خُدعت!

- هذا ما يقوله الخاسرون دوما!

- أنا لم أخسر، لقد تحالفتما ضدّي!

- طبعا، فنحن النّسوة علينا أن نتّحد لنفوز.

- ابنتي أنابيس امرأة ولن تتّحد معكما ضدّي أبدا! صحيح؟ (وجّه سؤاله ناحيتي، ولم أجد لنظراته سوى إجابة واحدة قلتها بحزم وثقة)
- أبدا!!
- آه، هكذا إذًا! (تعجّبت أمّي ثمّ رمت إلي علبة دوائه وأضافت قائلة) إذن أنت أقنعيه بأخذ دوائه الليلي.

كان أبي يكره أدويته بقدر ما كان يحب البطاطس المقلية، حملت أمّي قدر وخرجت من الغرفة ساخرة من صعوبة مهمّتي، فحملت علبة الدواء وأملت رأسي ناحيته، ثمّ هززت الحبوب الّتي كانت بداخلها وسألته متيقّنة من إجابته:

- هل هناك أيُّ فرصة في أنّك ستأخذ الدّواء دون مقاومة؟
- لا! (أجاب بحزم ثمّ غطّى رأسه بلحافي واختبأ تحته هناك)
- ...خيانة!

# الفصل الثالث

- سراج الدين؟! سراج الدين؟! (سمعت والدي يناديني بجنح الليل)
- هل أنت بخير أبي؟! ماذا هناك؟ إنّها الثالثة صباحا، ما الّذي أيقظك؟!
- أنا بخير ابني. أريد أن أستحم كي أصلّي الفجر، أشعر بالقذارة فأنا لم أغادر الفراش منذ أيّام، وأمّك نائمة ولم أشأ أن أزعجها. تعال وحمّمني أنت، تدين لي بذلك، فعلى الأقل أنا لن أقضي حاجتي عليك كما كنت تفعل أنت لما كنت رضيعا.

سُررت بتحميمه، ربّما لأنّي شعرت بتحسّن صحته وقدرته على مغادرة الفراش بنفسه على خلاف الأيّام السابقة، أو ربّما لأنّني اشتقت لمثل هذه اللحظات، أن يحتاجني أحدهم وأكون ذو فائدة لشخص ما، لكنّ والدي لم يعد على عادته، أكثر هدوء وسكينة، بدا وكأنّه أكثر خفّة روحا وكأنّ هناك من يحمله بعيدا. استحممت أنا أيضا بعده ثمّ توجّهنا إلى المسجد للصّلاة معا وبقينا هناك حتّى طلوع الشمس لصلاة الضحى. لم نتحدّث بتاتا، كلّ منّا في جهته المعتادة، أتلو القرآن على مسامعه بينما ينظر إليّ من تارة إلى أخرى. بعد عودتنا إلى المنزل، عادت صحة والدي للتهاون، فألزمته الفراش ثمّ توكّلت على الله لعِلمي أنَّ معظم صالات الرّياضة وبناء الأجسام تُفتح صباحا. وضعتُ مخطّطا لكلّ صالة رياضية في المدينة من أقربها إلى أبعدها كي لا تختلط عليّ الأماكن وأضاعف مسافة مشيي من غير حاجة كما أفعل دوما. لم أكن يوما بهذا الذّكاء ولكن آثار حروق شمس البارحة على جلدي علّمتني الكثير. ماذا يمكنني أن أقول، أنا أتعلّم بالطّريقة الصّعبة...دوما.

أخرجت صينيّة الفطور لعمّي عبد الغني وقبل أن أنادي عليه لأعرف مكانه بادرني هو بالتّحية من خلفي كأنّه هو من كان يحاول إيجادي.

"بني سراج الدين، لديَّ خبر سعيد!"

لم أرى يوما رجلا بالغا يقفز فرحا كطفل صغير فرحٍ بالعيد. وضعت صينيّة الأكل جانبا كي أترك له المجال ليعانقني، ولكنّه احتضنني بقوة بدل ذلك، ممتنا لشيء ما. لم أستطع سؤاله عن ماهيته، لم أستطع حتّى السّعال أو التنفّس. كلّ ما كان يخرج منّي هو صوت عظامي وهي تُهرس، وما أن فكّ حصاري قال مستعجلا:

- لقد وجدت عملا!
- هذا رائع عمّي والآن اجلس للفطور أوّلا قبل أن تبرد قهوتك ثمّ أخبرني كلّ شيء

ذكر الله عند قعوده ثمّ حمل فنجان قهوته لكنّه سرعان ما أعادها مكانها من جديد قبل أن يرتشف منها، يرتجف حماسا ويريد إخباري بما كان قبل أن ينفجر.

- سألت نفسي البارحة لم أنا لست مثلك؟ أنا متفرّغ طوال اليوم، لا زالت لديّ قليل من صحتي، وفور ما أستحم وأغيّر ملابسي، سيغيّر الناس نظرتهم تجاهي، فلماذا لا أبحث عن عمل ما؟! وسبحان الله، بينما أنا أفكّر في ذلك وأحاور نفسي حتّى سمعت قيّم المسجد يناديني. أنت تعرفه، هو لا ينظر تجاهي حتّى، لا يحتمل منظري، فهرولت إليه ظنّا أنّ هناك مشكلة ما وإلّا لما كان اسمي على لسانه، ولكنّه لم يكن يحمل إلّا خيرا وحلوا. أخبرني أنّه سيرحل لمدّة ثلاثة أشهر ويريدني أن آخذ مكانه حتّى يعود. أليس هذا رائعا؟! أجر ثلاثة أشهر، ومبيت في أمن بيت الله، وفرصة لتغيير نظرة سكّان الحيّ حيالي، أليس هذا عظيما؟!

- هو كذلك يا عمّي، لكن لو كنت مكانك لتكلّمت مع الإمام قبل أن أبدأ العمل، فإن أردت نصيحتي فعليك أن تحدّثه بما أخبرك به القيّم قبلا.

- لماذا؟!

- هناك فرق بين حسن الظنّ والثقة، فالأول يُعطى ولو من أوّل نظرة ولكنّ الثاني يُكسب عن جدارة. إن تمت سرقة غرض من المسجد، أو حصل فيه مشكل ما، فلن يتردّدوا في إلقاء اللوم عليك بحكم ماضيك مع القمار، وإرسالك إلى غرفة لا تخرج منها إلّا للأكل.

- حقًّا؟! (تعجّب بصوت مبتهج. المسكين لم يفهم قصدي وظنّ أنّ لتشبيهي معنى حسنٌ)

- السجن يا عمّي، سيرسلونك للسجن!

- آه...! للحظة بدا ذلك لطيفا جدّا.

- توجّه للإمام فور خروجه من الصّلاة وتحدّث معه عن الأمر خلسة عن القيّم، ثمّ اسأله عن صحّة الأمر وأن يتحرّى عن كلّ شيء قبل أن تقبل أنت الوظيفة، اتفقنا؟

- بالطبع، فهمت قصدك، لكن...هل تعتقد أنّ الأمر خدعة؟! (سألني بنبرة صوت منكسرة، خائب الظن من حلم ظنّه بعيد المنال)

- قدّر الله ما شاء فعل، لا تقلق يا عمّي، فالله خلق كلّ شيء بقدر، قدرك بمكان ما هناك، وسيصلك بيوم ما.

لا أعلم لماذا ينظر إليّ جميع من يعرفني وكأنّني طاعن في السّن، ناضج ومسؤول. هل لأنّني حقّا كبير في السّن؟ لا أشعر بذلك إطلاقا! أم ربّما لأنّهم يحسبونني مثقّفا؟ كلّ ما أملكه هو قطرة معرفة من نهر دائم الانسياب، كلّما اكتسبت معلومة جديدة كلّما صغرت تلك القطرة أكثر فأكثر بنفسي. كلّ هذه الأسباب بدت واهية. رغم أنّ طفولتي سُرقت منّي في الماضي المكنون، إلّا أنّني لا زلت أحسّ داخلي بذلك الطّفل الصغير وهذا يخيفني، لأنّه انعكاس صورتي على المرآة ولا يراه غيري وأخاف أن أعلق هناك دون أيّ توازن مع حجم مسؤوليّتي فأعيش في تناقض دائم مع نفسي ستؤثر بالنهاية على علاقتي مع الجميع.

بحثت في كلّ صالة علّمتها على خريطة مدينتي، وفي كلّ صالة دخلتها سألت مالكيها سؤالين، الأوّل ما إن كانت هناك وظيفة شاغرة، والثاني عن سعر الاشتراك الشهري للتدريب، واستنتجت جوابين اثنين لا احتمال ثالث لهما، الأوّل لا عمل لي من أيّ نوع والثاني لا مال لي لأبدأ التمرين وأهتم بصحّتي قليلا، فهممت بالعودة لبيتي أجر خيبتي ليوم آخر، أتوق لحمام بارد يزيح عنّي حرارة اليوم وحمله. لا أنكر أنّني ذرفت بعض الدّموع في طريق العودة. لم تكن تهمّني نظرات الناس إليّ من حولي، فهم لا يروننا إلّا في لحظات ضعفنا كي يشعروا بقليل من القوة حين يشفقوا على سوء حالنا. بكيت كثيرا أمام الطّريق المسدود الّذي أنا فيه؛ بدايةً بأبي المريض الّذي لا يستطيع تحمّل تكلفة طبيب؛ وأمّي الّتي أسمعها تتكلّم مع نفسها جهرا دون قصد منها من غير فضفضة ما كان ينخر عقلها دون النواح به على صدر فلذّة كبدها الوحيد لعجزه عن المساعدة، وظيفتي أنا! الفواتير الّتي تتراكم؛ النّاس الّتي تظلم وتضرب وتعادي دون أيّ اهتمام أو أدنى مراعاة. صحّتي الّتي تتدهور، ومبالاتي الّتي تكبر. كيف من المفروض بي أن أكون أنا القويّ الّذي سيأتي بجميع الحلول؟!

رأيتُ جمعا من النّاس حول منزلي؛ حشودا تكبر أكثر كلّما اقتربت؛ عرس ربّما؟ شجار بين الجيران كالعادة؟ شباب يلعبون كرة القدم على شارع بيتي رغم ما أخبرتهم ألف مرّة عن حاجة والدي للهدوء والراحة؟ لم أعتقد أنّ هناك أيّ شيء سيفاجئني، كلّ حاصل أصبح عادة علينا التعايش معها وكفى، لكن ما أن رأيت سيارة الإسعاف حتّى توقّفت للحظة، ولست أنا من توقّف فقط، الأرض أيضا توقّفت عن الدّوران،

قلبي توقّف عن الخفقان. بدأت قدماي بالرّكض دون وعي منّي، لم أشعر بشيء آنذاك سوى بالوجل المحتدم على وجهي وانعدام الهواء حولي، ارتفعت حرارة جسمي ولم أكن أستطيع التّنفس؛ اخترقت تلك الحشود دون مبالاة بهويّة وجوهها وكأنّني لم أكن أراها، حتّى أوقفني أحدهم وأحاطني بذراعيه غصبا؛ كان عمّي عبد الغني يحاول منعي من اللحاق بسيّارة الإسعاف الّتي كانت تمضي بعيدا مخافة أن أؤذي نفسي. لم أستطع الكلام، إن فتحت فمي لأتفوّه بحرف واحد، لنزلت مكانه دمعة بغنى عن أنظار النّاس الّتي كانت جلّ عيونها تجاهي ملتصقة بي من كلّ باب ونافذة وسطح وشرفة.

"إنّا لله وإنّا إليه راجعون"

كانت تلك الكلمات الوحيدة الّتي سمعتها من عمّي؛ يقولها ويكرّرها تارة على مسامعي وتارة على مسامعه؛ تلاشت دموعي واختنقت كلماتي بحنجرتي حتّى أماتت أحاسيسي. جلستُ على حافّة الطّريق وجلس هو جنبي، ثمّ أحاط ذراعه اليمنى حولي؛ الجميع ينظر ناحيتي كأنّهم يتوقّعون شيئا منّي أو أن أقوم بعمل ما، ينتظرون بكائي ولحظات ضعفي وهزيمتي، كعرض مسرحي يتابعون مشاهده واحدا بواحد، وكلّ ما أردته هو الصّراخ بوجوههم. لم ينظر إلينا أحدٌ حين قطعوا التّدفئة عنّا، لم ينظر إلينا أحد طرقوا بابنا وهدّدونا بالرحيل إن لم ندفع ما علينا من ديون، لم ينظر إلينا أحد أيّام الأعياد والمناسبات، لكن الآن لا يجرأ أحد على النظر إلى جهة أخرى مخافة أن يفوته العرض. كرهتهم! كرهت جميع البشرية. أردتُ الصّراخ عليهم بأعلى صوتي، لكنّني لم أفعل مع أنّه كان بمقدوري؛ الأمر لا يستحق العناء بعد الآن...

- أين هي؟ (سألته بنبرة ثقيلة مخدّرة تأبى الكلام)

- لم تُرد مفارقة والدك، فأخذوها معهم.

- أدخل للبيت يا عمّي واعتني به، سأذهب للاطمئنان عليها.

- افعل ما عليك فعله ابني. أنا حقًّا متأسّف...

دلفت إلى المستشفى شيه جثّة تمشي نصف حيّة، وقضيتُ يومين فيه أحاول إقناع أمّي أن تأكل شيئا، لكنّها رفضت كلّ ما عُرض عليها حتّى اضطرّوا لتغذيتها عبر الوريد. لم تتوقّف عن ذرف الدّموع حتّى إن لم يكن قصدها البكاء؛ أعتقد أنّها شعرت بالخيانة، وكأنّ أبي خانها بالرحيل عنها مبكّرا دونها. حَكَت لي أمّي لأوّل مرّة عن كيفية لقائهما، وفهمت أنّها لم تكن تبكي فقط لأنّها خسرت زوجا أو شريك حياة...بل خسرت جزءًا منها، من تدين له بحياتها كلّها.

كانت أمّي تقترب من سنّ العنوسة وجميع أخواتها تزوّجن بأولادهن وبناتهن وبيوتهن؛ لم يبق في المنزل سواها هي وجدّتي وفاة جدّي رحمه الله؛ كانت أحبّ البنات لأبيها لأخلاقها وبرّها به، رعايتها له واهتمامها به، فكيف لا يحبّها وهي من طمأنته دنيا وآخرة، تفتح له بابا من الجنّة. كانت لا تشتكي سوى لله، ولا تبكي إلّا حين تكون وحيدة كي لا تشعِر أمّها بالعجز فتزوّجها أيّا من دبّ وهبّ يريد متعة الحياة الدنيا دون أدب. العجز شعور رهيب، أليس كذلك؟! ألّا تستطيع مساعدة من تحب، شعور رهيب حقّا!

خرجتْ هي وأمّها ذات مساء لتغيّرا الجوّ الكئيب الّذي يُعيد ذكريات الغائب بين جُدران المنزل وأركانه؛ ذهبتا لحديقةٍ عامّةٍ خاصّةٍ بكبار السّن والعائلات. بمعنى آخر، لا مُعاكسات، لا كلام فاحش ولا مناظر تُضيق النّفس من الحرام الّذي يحصل فيها باسم الحريّة والحضارة؛ جلستا على مقعدٍ أزرقٍ خلف شجرة صنوبريّة، رغم أنَّ كثيرا من المقاعد متوفّرة قرب المساحات المفتوحة، ورغم أنّ أمّي كانت كبيرةٌ

بالسنّ آنذاك إلّا أنّها تمكّنت من حماية بعض الطّفولة فيها، فسارعت إلى المقعد الوحيد الّذي يحملُ لونها المفضّل وجلست عليه تحميه إلى أن تصل إليه أمّها.

كان على يمينها عائلة كاملة، بزوجيها وأولادها وبناتها، صغارها وكبارها. على يسارها مقعد خشبيّ بنيّ اللون فارغ، ومقابلهما رجلٌ يقرأ الجريدة ويشرب كوبا من القهوة الساخنة. أمّي تنظر للعائلة فترى أطفالا وجدّتي تنظر لنفس العائلة فترى أحفادا. رأت أصغرهم يطلبُ من أمّه قطع نقود يشتري بها المثلجات ولكنّها كانت مهتمة بالثرثرة أكثر من اهتمامها بمطلبه؛ لم يبكِ، لم يذرف دمعة واحدة، بل تظاهر بالقوّة وعدم المبالاة، هكذا وصفته أمّي. شعر بالوحدة بعد أن رفض إخوته عودته للعب معهم، فابتعد عنهم وجلس متمرّغا على التّراب يُراقبهم بصمت وسكون. لم تفق أمّي من مراقبته إلّا على دموعها تشق سبيلها عبر سهل خدّها، لا تدري إن كانت أحسّتْ بالوحدة مثله، أو بالأمومة تنفجر بصدرها؛ أقامت رأسها أمامها كي لا تلاحظ جدّتي دموعها، فلفت انتباهها صاحب الجريدة ينظُر إليها بنظرات حادّة منكسرة، نظرات جعلتها تشعر ببكائه عليه هو أيضا. مسحت خدّيها خجلا وذهبت لشراء المثلّجات لأجله، لكنّ حين عادت وجدت الطفل بين أحضان الرّجل الغريب يأكل مثلّجاته؛ جالت بنظرها حولها تبحث من أين أحضرها له بتلك السرعة، ثمّ عادت لمقعدها متحسّرة لأحضان ذلك الطّفل. ذات قلبٍ حسّاس أفخر أنّني ورثته عنها.

تحوّلّ حزنها إلى غضب قذفته بنظراتها نحو ذلك الرجل الغريب. ضحكتْ أمّي على سريرها بالمستشفى وقالت:

"غضبت منه لأجل ذلك. حرمني من طفل غيري، ولكنّه منحني طفلي الخاص"

كان ذلك أبي. بعد أن رآها تذرف دموعها هشاشة، ثمّ رآها تُحاول بجُهد أن ترمقه بنظرات محتقرة بأعين شبه مُغمَضة زادتها جمالا وليس صلابة، مزّق جزءا من الجريدة وكتب عليها:

"السلام عليكم ورحمة الله؛ هل باب الحلال مفتوح أم مغلق؟"

ثمّ طواها وأعطاها للفتى الصّغير مع القلم، والّذي أعطاها بدوره لأمّي الّتي غضبت قليلا من وقاحته وجرأته، لكنّها اعترفت بلباقة تصرفاته، وكونها ذكية ردّت عليه:

"أغلقته كي لا يدخل تجّار الحرام منه دون استئذان، فأهل الحلال ذو خُلقٍ وعلم بالدّين يطرقون الأبواب مغلقة كانت أم مفتوحة"

وأعادت الورقة إليه بعد أن أخذت نصيبها من أحضان الطفل الصغير وقبلاته، لم تكن لتتركه لتفلته من قبضتها ببساطة. قرأ أبي جوابها وفهم مغزاها، فأعاد إليها جزءا آخر من الصّحيفة كتب فيه:

"عنوانك ورقم هاتف والدك؟"

كتبتْ له عنوان أخيها ورقم هاتفه، فغادر والدي من لحظته، وتلك الليلة بالذّات اتّصل بها أخوها وبشّرها برجل قادم لخطبتها.

- لم أفهم (قالت أمّي على فراش المستشفى) لا زلت لا أفهم، كان وسيما، نحيلا قليلا، لكن جدّ وسيم، بوجنتين متورمتين بخدود منحصرة داخل فكيه، هادئ، يجذبُك بملامح تقول أنّه رأى كثيرا من هذا العالم، مرّه أكثر من حلوه، كانت لديه نظرةٌ على وجهه تُعطيك الانطباع بأنّه قد فهم كلّ شيء، مدرك لما يريده من الحياة ومتعب حتّى قبل أن يحصل عليه. لمْ أفهم لمَ اختار امرأة في مثل سنّه ولم يختر من هي أصغر

منّي وأكثر جمالا، لا زلت لا أفهم، كنتُ مؤمنة بالقضاء والقدر، لكن بعده هو، زاد إيماني وحبّي لله لأنّه قد أرسله إلي، خصّيصا، كان معجزةً في عيني، معجزةً بالنّسبة لي...

- هل أحببته؟ (زلّة لسان من إحراجي ندمت عليها)

- كنت أحبّه، كنت...ثمّ جُننت به، ثمّ بلغتُ مراحل الحبّ والودّ أقصاها؛ نعمةٌ هو، ملاكٌ مرسلٌ من الله؛ كان حلالي وقدري، كان لي وحدي ويوما ما ستدرك معنى كلامي، شعور أن تمتلك شخصا ما، تمتلك قلبه وروحه وكلّه. كانت فيه كلّ صفةٍ تخيّلتها في زوجي المستقبلي منذ أن كنت طفلة، الحنان، اللطف، الهدوء، الابتسامة، كنتُ قد بدأت باليأس من الحياة والإحساس بالكِبَر، ولم أعد أريد إلّا زوجا يُنصفني مهما كانت صفاته، ولكنّ والدك ظهر من العدم، وأعادني صغيرة، طفلة من جديد.

- لهذه الدرجة...! (قلت مبتسما)

- بل وأكثر، كنتُ لا أطيق الانتظار حتّى أراه من جديد، حتّى وإن كان في المنزل، كنتُ ألقي عليه نظرةً من حين لآخر لأراه يطالع كتابا بهدوء، أو مستلقٍ على الأريكة متمعّنا بالسقف يرسم عليه عالما أحببت واقع أنّني فيه وإن لم أسأل؛ حين أكون بالمطبخ ويغلبني سكون المنزل أنادي عليه فقط كي أسمع صوته حين يجيبني، فأعود لشغلي مطمئنة بوجوده. أحسستُ بمعجزة الله فيه، أُرسلهُ إليَّ ومنحني إيّاك. سترني من كلام النّاس وقرَّبني من الله، حتّى حين كنت أواجه واقع الحياة، ويغلبني الأرق حين أفكّر بأن الموت حقّ، كنت أدعو الله قياما وقعودا، ليلا ونهارا أنْ يجمعنا في جنّته، بل وأكثر من هذا، دعوته بسذاجتي أن يأخذني فور ما يأخذه، لأنّني لا أستطيع العيش دونه، لأنّني لا أستطيع...أنا...

عجزت أمّي عن اخراج تلك الحروف المتبقيّة الّتي زاحمت نشيج بكائها. عانقتها حتّى هدأت وعادت إلى نومها، ثمّ غفوت أنا على الكرسي جنب سريرها ولم أفق من غفوتي إلّا على صوت الممرّضة تُنادي الأطباء فزعا على عجل.

أمّي توفّيت أيضا...ماتت.

وقفت هناك ليس لأنّني أردتُ ذلك بل لأنّني أُصبت بالشّلل حتّى في عقلي، لم أستطع الحركة ولم أستوعب شيئا ممّا يحدث حولي. كنت في صدمة، في إنكار تام لما يحصل، حتّى بدأ تنفّسي يشقّ عليّ ورؤيتي تتشوّش، آخر ما تذكّرته هو شعور بغثيان شديد قبل أن أسقط على الأرض مغشيّا.

استيقظتُ على سرير المستشفى. فجأة أصبحتُ من مشاهير المدينة، بل وحديث البلاد؛ أخبروني أنَّ قصّة عائلتي على أوراق الصّحف وألسنة مقدّمي البرامج. أمّ يقتلها الحزن على فقدان حبّها، تموت وتترك ابنها خلفها. صدّقت ذلك، ولكنّني آمنت باستجابة دعوتها أكثر. شعرتُ بالغضب لكن سرعان ما أخذ مكانه مساومة بين وبين الله، أسأله أن يكون هذا مجرّد حلم وله بالمقابل ما شاء منّي، وأُدركت ذنب فعلي لكن لم أكن أبالي، حتّى تملّكني الاكتئاب. حزنت لأنّ أمّي نسيتني في دعائها؛ أبقتني حيّا دونهما.

لم يعد للعالم طعمٌ ولا ضجّة. لم تعد لحياتي أيّ معنى. كانت كلّ أهدافي وأعمالي لأجلهما، كانت أحلامي إسعادهما، والآن وقد رحلا...ماذا سأفعل بحياتي؟!

عدت إلى منزلي دون أن أذرف دمعة واحدة. شعرت بأنّها هناك، ولكن بشكل ما كانت كلّ دموعي جافّة، وكأنّ خلفها سد يمنعها من ترويني راحة. لم أخرج من منزلي، ولولا عبد الغني لنسيت الأكل، لنسيت

الصّلاة، لنسيت حتّى غسل أسناني وتنظيف نفسي. كان سعيدا بالاهتمام بي وكأنّني ابنه الوحيد، يحاول أن يتمالك نفسه لعلّي استمدّ أنا قوّتي من صلابته.

كنت أحاول التركيز على أيّ شيء آخر كي أُبعد تفكيري بهما، لكنّ رائحتهما ما تزال تجول أرجاء البيت، فأخذتُ أنظّفه بالماء والصابون أطراف الليل والنهار. كان يراني عمّي أشق أنفاسي بحكّ الأرضية على ركبتاي، لكنّه يحترم حالي ولا يقف بطريقي أو يحاول منعي. بعد الرّائحة كانت صورهما ما تشد تفكيري، فحرقتها، وحين فعلت وجدت أمامي ملابسهما، أدواتهما، أفرشتهما، وحتّى أصواتهما تشغل زوايا البيت الفارغ بصداهما...أستطيع سماعهما. لا أدري كيف يعيش عبد الغنيّ دون أهله، ربّما السبب لأنّهم أحياء لا يفصل بينه وبينهما عالم آخر.

فعلتُ كلّ شيء لأبعد ذهني عنهما، أصلحتُ الأبواب والخزائن والنّوافذ، زرعت وردا وشوكا وعنبا، لم يكن ينفعني شيء أو يتعبني كفاية لأنام ليلا، فقبر أحبّتي طالما كان في عقلي.

- بماذا تحسّ عندما تفكر بهم؟ (سألته)

- من؟!

- عائلتك

- لا أدري...

توقّف عن الطّبخ وجلس على كرسي مائدة المطبخ ثمّ أكمل قوله:

- لا أدري، أشتاق إليهم، هذا مؤكد، ثمّ أحزن عندما أفكر بأنّهم نسوني، ثمّ أغضب من نفسي وخيبتي منها لما فعلته، ثمّ بأيام قليلة أخرى أتقبّلها. أحسّ بالكثير وأفكر بالكثير أيضا، لهذا يدعونني بالمجنون خارجا...

عاد للطبخ بعد أن انقطع صوتي وغلب عليّ شرودي. أحسستُ بكرهي للبيت، كلّ شقّ وكلّ حجر اسمنت، كلّ ذرّة منّي لم تحتمل أيّ زاوية منه. وقعت عيني على الجّريدة الّتي وضع بها إعلان جنازة والديّ، فتناولتها لأقرأ بقيّة الأخبار المشاعة عن عائلتي.

"بحثٌ عن عامل لدوام كامل؛ مدرّب كمال أجسام؛ أجرٌ قليل، نوفّر الأكل والإقامة. الهاتف والعنوان "

"لقد مرّ عليه وقت طويل، على الأرجح قد وجدوا مُساعدا بالفعل. اتصل ماذا لديك لتخسر؟"

كنت أكلّم نفسي، بنيّه الهرب من سجن الذكريات، مدركا تمام الإدراك أنّ ذلك من المستحيلات.

- عبد الغني؟!

- نعم ابني؟

- لو عادوا إليك كلهم، وعاد إليك مالك ومنزلك، هل كنت لتعيد نفس الخطأ؟

- لا، طبعا لا؛ لماذا تسأل؟! هل تفكّر بمعاقرة الخمر؟ أنت تعلم أنّني لن أتركك تفعل هذا، أبوك سيقتلني، أو أسوأ، أمّك ستفعل!

ابتسمتُ لأوّل مرّة منذ أن فقدتّ سبب ابتسامتي، ابتسامة مرهق على وشك الموت؛ قبّلته على جبينه ثمّ صعدتُ إلى السّطح حاملا هاتفي لأتّصل بصاحب الإعلان.

- السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.

لأوّل مرّة يردّ عليّ شخص تحيّة الإسلام كاملة؛ كنت مرتاحا لنبرة صوته الخشنة، كشيخ عجوز يروي لأحفاده قصصا من الزمان.

- أعتذر للإزعاج خلال هذا الوقت المتأخّر؛ أنا أتّصل بشأن الإعلان في الجريدة، هل ما زال متاحا؟

- يا ابني، صراحة لم أكن أظنّ أنّ أحدا سيتصل لأجله. فالأجر قليل جدًّا.

- لا يا عم، لا يهمّني الأجر بقدر ما تهمّني المسافة، طالما هناك الأكل ومبيت.

- ابني...هل أنت بخير؟! (سألني بعد أن صمت لبرهة)

- ماذا تقصد؟!

- صوتك يا ابني؛ كم مضى من عمرك؟! هل ستهرب من المنزل أو ما شابه؟!

- لا يا عم...نعم، لكن ليس كما تظنّ!

- حسنا يا ابني، إذا حصلتَ على الوظيفة فستأكل في بيتي وتنام مع عائلتي، فهل تمانع إخباري لماذا يريد شابٌ مثلك أن يحصل على وظيفة بأجر يومي لا يمكن أن يطعم به قطة؟

هل تعرفون تلك اللحظات الّتي تُحاصرون فيها بموضوع لا تستطيعون له شرحا سوى قول الحقيقة الّتي لا ترغبون البوح بها؟ لم أجد حلًّا غير ذلك، فأخبرته بها كلّها؛ دعا لوالديَّ بالرّحمة ورحّب بي للعمل، بل وغيّر مكان نومي من غرفة المعيشة إلى غرفة في الطّابق العلوي؛ اعتذَر عن الأجر مجدّدا لكنّني أخبرته أنّ المال لم يعد ذو قيمة، فقد رحل من كنت أحتاجه لأجلهم. لم أخبر عبد الغني ولكن بعد يومين تركت له رسالة مكتوبة شرحت فيها كل شيء.

"لطالما جعلني اسمك أفكر في الكثير، فاسمك وحده حمل إليّ درسا لم أكن أدركه قبلا. أدركت أنّ الإنسان مهما بلغ من ثرائه في الدنيا فلن يكون غنيّا إلّا إذا أغناه الله بالإحسان وحسن الخلق والإيمان. لا أدري كيف كنتَ قبل أن أعرفك، ولكنّني أعرفك الآن وهذا يكفيني، وأنت يا عبد الغني، غنيٌّ بالنسبة لي. لقد علّمْتني أشياء دون قصد منك، وأتمنى بدوري أن أكون قد علّمْتك أشياء واكتسبت احترامك كفاية لتأخذ رسالتي هذه على محمل الجدّ فلا تخيّب ظنّي ولا ظنّ نفسك.

الحقيقة يا عبد الغني، هي أنّني لا أستطيع البقاء بين جدران هذا المنزل المشبّع بذكريات والداي، أنا الّذي ورثت قلب أمّي الحسّاس. صحيح أنّ بعضها كان مخيفا ومرعبا، لكنّني تمنيت أن أرث ذلك عنها أيضا. ففي زماننا، الرّجل الحسّاس ليست لديه أيّ فرصة في النّجاة.

أنا أكره الوداع، ولقد أنعم الله عليّ بالبعد وقت وفاة والدي، وأغشى عليّ بصري وقت وفاة أمّي. وأنعم عليّ بجار صالح مثلك يعرف القراءة. صحيح أنّك كنت بلا مأوى ولا أهل ولكنك كنت خير من بالجوار، وخير الصديق وخير الأخ، وخير الأب أيضا.

أنا لا أفارقك، ولكنّني لا أستطيع وصف ما أشعر به داخل تلك الجدران؛ لا أستطيع أن أتخيّل بأيّ طريقة أن تكون لي حياة هناك؛ أنا أغادرك للوقت الحالي لحين ما أن أجد طريقي من جديد، سببا للحياة، ولا تخشى الوحدة، فأنا لن أتركك وحيدا أبدا. الصراحة، لطالما كنت خائفا من الموت، لكن بعد أن شهدت موت أهلي، أشعر بأنّني مجرّد عابر سبيل هنا، والآن، أرحب بالموت ليعيدني إلى عائلتي. لا يمكن للحياة أن تترك إنسانا يعيش دون أيّ مخاوف، وبعد أن هان الموت بعيني، وجدني أخاف النسيان. أخاف أن أموت وليس لي في هذه الدّنيا أثرٌ يَذْكرني به أحد ولو بدعوة صالحة، أن أغادر دون أثر لي ولو في قلب أحدهم بكلمة طيبة.

الحقيقة المرّة الّتي يبدو أنّ الجميع قد نسيها، هي أنّ الجنّة ليست بالمجان. لهذا، هدفي الجديد هو رؤيةٌ أحلمُ بها بعيون مفتوحة، أن أكون أنا وأبي وأمي من الّذين أحبّهم الله وأدخلهم الجنّة بسلام، ننعم بالنظر إليه دون حساب أو سابق عذاب. أريد، يا عبد الغني، أن أكون خطوةً تُقرّب أحبّتي للجنّة لا للنار، مهما حاولت أن أنكر ذلك، أدرك أنّ والدي ووالدتي سيُحاسبان على كلّ ما يبدُر منّي لأنّني كنت رعيّتهما. لذا، سأفعل فقط ما سيسعدهما حسابا، ما سيدخل السرور لقبريهما فيقول لهما ملاكهما هذا من دعاء ابنكما فهو لم ينساكما لا فعلا ولا قولا، لا قياما ولا قعودا، فأقدّم لهما من راحة الجنّة وثمارها ما عجزت عن تقديمه لهما بدنيا الشقاء والفساد. لهذا أيضا، يا عبد الغني، أريدك أنت وعائلتك أن تجتمعوا معنا في الجنّة، لأنّ أبي أحبّك في الله حبّا صادقا، وأصارحك القول بأنّه استشعر موته يومها فغسّل نفسه وصلّ عليها، ثمّ أهداني نصيحة أنوي أن أتخذها مبدأ أعيش عليه، وسأهديك إيّاها علها تعود عليك بفائدة أيضا. قال لي:

"قبل أن تمدّ يدك لفعلٍ ما، وقبل أن تفتح فاهك لقولٍ ما، أريدك أن تسأل نفسك سؤالا أوّلا، هل أرضى أن يكون فعلي هذا وقولي مكتوبا على صحيفة أعمالي يوم أقف أمام الله وأحاسب عليه أم لا؟"

لقد كذبوا علينا يا عبد الغني، السّعادة ليست غناءً وذنوبا، أو ملابس على الموضة، أو أصحاب سوء وتفتُّح عقل وسهر وعلاقات، كلّها متغيّرات، فما كان رائجا اليوم أصبح قديما بموسم آخر، وأعوذ بالله أن تكون السعادة الحقّ آفلة تتغيّر بتبدلّ الفصول والمواسم. السّعادة الّتي أقصدها تفوق ذلك، وتدوم إلى الأبد. سعادة بدأتها بك أنت أوّلا.

لقد ذكرت عائلتك لسبب واحد، وهو لأنّني زرتُ زوجتك البارحة وهي بدورها اتصلت بفلذّات كبدك، وكلّ ما أطلبه منك هو أن تنظّف نفسك جيّدا والبس ما يكون على مقاسك من ملابس أبي، ثمّ ادخل إلى المطبخ واطهو لهم طعامهم المفضّل، فهم قادمون للعشاء، على أمل أن يبقوا وقتا أطول. فقط كن على نفسك، نوعا ما...حسن، ليس كثيرا، مهد لهم الطريق رويدا، لا تكن مجنونا.

أمر آخر، سيأتي كاتبٌ عمومي بعد صلاة الظّهر لتُوقّع على بعض الأوراق، إنّه موثوق فلا تفكّر بالأمر كثيرا. تهانينا جاري، أصبح لديك منزل الآن. أنا لا أحتاجه حقًّا، البيت دون أهل ليس منزلا، مجرّ> طلل مهجور. لقد تركت لك هاتفي على طاولة المطبخ كي يتّصل بك، استعماله بسيط جدّا، حين تسمعه يرن، اسحب العلامة الخضراء يمينا لتجيب.

هل تذكر حين قلت لي أنّ حلمك كان مطعمًا صغيرا تسمّيه " محطّة عبد الغني وأبناؤه"؟ أريدُ منك أن تهدم جدار المطبخ الخارجي وتسعى خلف ذلك الحلم. لا يهمّ كم سنّ الرجل أو المرأة، فما دامت الرّوح

ما تزال في الجسد والعزيمة ما تزال بين أرباض القلب، ما دام حلمك حلال، فسعيك لذلك الحلم حياة بحدّ ذاتها. لكن لن ينفعك تسميته بذلك الاسم لأنّه ظالم قليلا وأنانيّ، برأيي، أعتقد أنّ عليك تسميته "محطّة عبد الغني وأبناؤه وأحفاده". نعم، لقد قرأت ذلك بشكل صحيح، مبارك، أنت جدّ لطفلين، أحدهما في عامه السّابع والآخر في عامه الأوّل، كلاهما من ابنك الأوسط. لا تقلق، أنت لم تفوّت من عمرهما كثيرا، سوى البكاء المستمر وتغيير الحفّاظات ووجعَ الرأس، من المفترض أن يكون الخبر مفاجأة، لكنّك تعرفني، أحبّ أن أكون حامل الأخبار السعيدة. تظاهر بالمفاجأة ولا تفضحني. في الواقع، يجدر بك تسميته " محطّة عائلة عيد الغنيّ"، مختصر وشامل.

هذا هو عنواني الجديد الأوّل، أتوقّع أن تراسلني بأخبار سعيدة، والأهم من كلّ شيء...لا تنسني."

ابنك سراج الدين.

*** *** *** *** *** *** ***

ما تسمعونه عن القرى الصغيرة صحيح كليّا، الأخبار تنتشر بسرعة، والإشاعات أسرع من ذلك بكثير؛ مع كلّ تلك الإشاعات، تتعجّب حقّا لمَ ليس لدينا في بلدنا مؤلّفون أكثر. منذ قرابة الأسبوعين جاء شاب للعمل مع أبي، ومنذ أن خطت قدمه عتبة بيتنا، وصل لمسامع أبي هاته الأقوال:

"لقد زوَّج ابنته سرّا من رجل فقير خارج المدينة؛ إنّه شابّ نحيف لا يمكن أن يكون ذا خبرة في بناء الأجساد"

"يبيتُ معهم بالبيت، لابدّ من أن يكون زوجها"

"لقد أعطاه عملا وبيتا كي يتزوّج تلك الزانية ويدّعى أنه والد تلك الفتاة الصغيرة"

للحظةٍ نسيتُ أنّهم يتكلمون عنّا وظننتُ أنّني أسمع قصّة درامية تلفزيونية. للحظةٍ هناك بدأتُ أتساءل:

"ماذا سيحصل للفتاة الصغيرة؟ هل ستبقى سرّا؟ هل سيكتشف الشّاب حقيقة الفتاة أم أنّها ستقع في حبّه وتخبره بالحقيقة أملا في يبادلها الحبّ ويصفح عليها؟ أم هل ستكذب عليه طيلة حياتها؟ هل سيتقبّل الحقيقة؟"

على أحدهم أن يكتب ذلك، ستكون رواية رائعة!

الشابُ لطيف حقّا؛ أخبرني أبي بقصّته ممّا زاد فضولي عنه؛ لم أره ولم أتكلم معه منذ أن وصل، لكن بلغني أنّه خجول جدا، وأنا أشدّ خجلا. أشعر بالأسف لأجله أحيانا، فهو لا ينام كثيرا، لا أدري ماذا يفعل في تلك الغرفة، أسمعه كلّ ليلة، قابع في الظلمة تفهُما لحاجتنا وغلاء فاتورة الكهرباء؛ يأكل كلّ وجباته في الصّالة ويبقيها مفتوحة لأواخر الليل، وهذا شيء لم يعد أبي يستطيع فعله، ممّا زاد من عدد الزّبائن المشتركين، سبعة في أسبوعين.

أمّي تحبّه كثيرا؛ يستيقظ للفجر، يصلّي ثمّ ينظّف غرفته ويرتب فراشه ثمّ يذهب للصالة مباشرة ويغسل ملابسه المتّسخة هناك؛ حين يأكل ينظف الأطباق قبل أن يعيدها معه؛ طالما أخبرته أمي:

- لا بأس ابني. اسمح لي أن أغسل ملابسك!

فيبتسم ويجيب:

- قد تسمحين لي، لكنّ أمّي لن تسمح لي أبدا.

أبي أحبّه؛ يقول أنّه كثير الابتسام الصبر مع الشّباب وتصرفاتهم الطائشة ولا يملّ من تنظيف الصّالة والاهتمام بالأجهزة والأدوات، وحين يسأله أبي عن سرّه يجيب:

"أحبّ التّنظيف، عندما أكون في بيئة نظيفة ومرتّبة، أحسّ بأنّي نظيف مرتّب ومُرتاح"

قال بأنّه قضى وقتا طويلا عاطلا عن العمل، وحصوله على واحد يجعله يعمل بجدّ أكبر، حتّى أنّه وضع برامج تدريبيّة للصغار والشباب وكبار السن، وبسبب ذلك التّنظيم، أصبح المشتركون يقضون وقتا أطول في الصّالة؛ وقال أيضا بنّه يعرف قدره من الدين والكثير من القصص الصالحة، ولا يتجاوز حدوده بالسؤال أبدا. أخيرا وجد أبي شخصا يستطيع أن يحاوره ويقضي معه وقته من غير عائلته.

لم تكن ابنتي قدر تعرف من النّاس غيري وجدَّيْها، لذا هي تشعر بالغرابة تجاهه والخوف منه كأنّه كائن آخر لم تكتشفه بعد. تقول بأنّه لطيفٌ معها ودائم الابتسام، لكنّ رغم ذلك تظنّه أحمقا. حاولت أن أجعلها تفهم أنّ الخجل يجعل من الإنسان يقوم بتصرفات بلهاء قد تبدو حمقاء، لكنّها تعلّقت بتلك الكلمة، ولا أعتقد أنّا ستتخلّى عنها قريبا. مهما حاول استدراجها، تهربُ بعيدا عنه، لا كلام حلو ولا نظرات اهتمام كانت لتجعلها تقع بين يديه. أحيانا ترتدي نقابها المفضّل داخل المنزل خجلا منه، وأحيانا أخرى لا، لكنّها حتما تتصرّف بطريقة لم أعهدها عليها قبلا، ربّما هو فضولها حياله فقط.

بالنسبة لي، لم يعجبني الحال في البداية؛ ظننتُ أنّ الأمور ستتغيّر وأنا لا أحب التغيير، يطمئنني الاستقرار والروتين، وبما أنّه شاب، فقد حضّرت نفسي لكثير من الصخب حول البيت، وكثرة الدخول والخروج خاصّة وأنّ غرفته في آخر الرّواق، لكن حين سمعت عن تصرفاته وبالكاد لاحظت وجوده، ثمّ رأيت تأثيره على حياتنا، حمدت الله عليه حمدا كثيرا. جعل أبي أكثر سعادة وراحة، يتصرّف كشابّ مجدّدا ولا يشتكي ألما. أمّي لا تزال تسخَر من نفسها:

**"أيعقل أنه يغسل الأواني والملابس أحسن منّي؟!"**

لقد جعل بالفعل البيت أكثر حيويّة، والعمل يجني ثمارا كما لو كان في موسم قطافه. الإنسان نفسه قد يكون نعمة وفرجًا من الله تعالى، حتى وإن كان ذلك الإنسان لا يدرك بركته، ويتصرف فقط على طبيعته وأخلاقه الّتي رزقها الله إياه. تشعر هناك بأنّ الله تعالى كان يُعدّه من أجلك، ويرشده منذ البداية بالصعوبات والمواقف حتّى ينحته بالشكل الّذي ينفعك فيصل إليك في المرحلة الّتي كنت تحتاجه فيها أنت بالأشدّ. الله فعل، الله يفعل.

- عزيزتي؟

- نعم أبي، أدخل.

- آه، ها هي قدر، لم أرها اليوم!

- هي نائمة، أصبحت تقضي وقتا أطول معي منذ قدوم سراج الدّين.

- هي لم تتعود عليه، لكنّه يعشقها!

- حقا؟!

- نعم، مجنون بها! يتكلّم عنها كلّ الوقت ويحاولُ دوما أن يجعلها تقترب منه. قريبا سنراه يطاردها في الرّواق وحول أرجاء المنزل.

- هل أخبرته؟ (كنت أقصد عن حادثتي)

- لا، ليس بعد. لا أظن يهتم صراحة، كما أنّه لا يعقد صداقات مع الشّباب أبدا، ويضعهم عند حدّهم فور ما تخرج حواراتهم عن نطاق التمارين، وهذا ما جئت إليك بشأنه.

- ماذا؟ خيرٌ إن شاء الله

- خير، خير بإذن الله؛ طلب منّي الإذن كي يذهب للمدينة، فمنحته إيّاه لكنّه لم يذهب. سألته بعدها فأجاب أنّه يكره الزحام بأماكن لم يعتد عليها. أخبرته أنّني ذاهب غدا كي أشتري لك كتابا إن كان بحاجة شيئا أقتنيه له في طريق عودتي، فأجاب: "كتاب"

- يقرأ الكتب؟!

- نعم، هذا ما يفعله في الصّالة حين لا أكون هناك. لديه سبعة كتب أحضرها معه من بيته، لذا كنت أتساءل إن كان بإمكانكما المبادلة؛ سبعة بسبعة، وترحَماني من عناء الذّهاب إلى المدينة.

- وهل سيحافظ عليها؟

- أنظري إلى كتبه واحكمي بنفسك.

أخرج من حقيبته الرّياضية سبعةَ كتب بدت وكأنّها جديدة؛ أربعة منها أجنبية وثلاثة عربيّة تحكي قصصا حقيقيّة؛ لم يكن لديّ بمتناولي كتب بتلك الروعة، فمدينتي لا تكترث كثيرا بغذاء الروح طالما البطن جائعة. لا أستطيع مكافأة الكفّة، بحوزتي ما يقارب المائة كتاب، ولكن مقارنة بهذه...

- أبي، ما رأيك أن أختبئ في غرفتك، وأنت تدخله إلى هنا ليختار بنفسه؟

- حلّ عادل بالنّسبة لي لكن عليك أن تحافظي على كتبه كما يحافظ هو عليها، لا تحرجيني أمامه فأنا بالفعل محرج من كمّ جهده وفضله علينا.

- طبعا أبي؛ إحراجكُ هي مهمّة أمّي، ولن أجرأ على سلبها منها.

ضحك وسألني قبلة على خدّه الأيسر قبل أن يغادر، فقبّلته.

- ميعادنا الليلة بعد العمل!

- إن شاء الله.

مضت عليه نصفُ ساعةٍ داخل غرفتي مع أبي، ولا أدري لم كنت أشعر بالتوتّر وكأن الشرطة هناك تبحث عن مخبئي للمخدرات والأسلحة. أتفهّم أنّ اختيار الكتب يأخذ وقتا، فهي ليست مجرّد أوراق، بل رفقة، عليك أن تختار الرّفيق الّذي تريد أن تقضي الوقت معه، صفحة بصفحة، فصلا بفصل، دون ندم. كما أنّني لم أجعل مهمّته سهلة، لديّ الكثــير من الرّفقة!

لطالما احتار والدي عن كيفيّة بقائي في تلك الغرفة طوال الوقت دون أن أشعر بالاختناق، لكنّني في الحقيقة لم أكن؛ لم أكن مختنقة ولم أكن في غرفتي ولم أكن وحيدة؛ لقد عشت في كلّ العصور وكنت كلّ شيء عدا نفسي؛ عشت مع الديناصورات وكنت واحدة منهم أحاول الوصول للثمار العالية وأتجنّب الحيوانات اللاحمة؛ عشت مع رجال الكهف وكنت رجلا منهم أيضا، أبحث عن طريدة سهلة كي أعيدها لملجئي وأطعم عائلتي؛ عشت بالمستشفى مع مرضى السّرطان، وكنت طبيبتهم المريضة سرّا بعلّتهم، تبتلع معاناتها حين يصيحون بوجهها أنّها لا تعلم حجم ألمهم؛ عشت رحّالة مع خير عباد الله في الصّحراء أرتحل من مكان لمكان، أبيت في الخيم مع أهل البدو وأشرب الحليب من ضرع الإبل؛ ركبت السّفن واصطدت الحيتان؛ كنت الشرير والخيّر في بعض الأحيان، ركبت الفَرس وسقطت عنها ثمّ أعدت المحاولة حتّى

أصبحت فارسة؛ علِقت في جزر مهجورة وحدي أنجو بما تصطاده شبكة حجابي وما يلقيه البحر على شاطئي، أحتمي من العواصف داخل كوخ مهترئ بنيته بيدي، وحتّى أنّي حظيت بحديقة حيوانات خاصّة بي، وكلّ من فيها يعرفني ويحدّثني، شرسا كان أم أليفا، ضخما أم ضئيلا. لقد حظيت بكلّ شيء؛ عشتّ منذ أن خُلقت الأرض إلى آخر الزمان دون أن أبتعد شبرا واحدا عن غرفتي.

# الفصل الرابع

الأمر غريب! حين يرحل من تحبّه في الدّنيا يصبح كلّ شيء تقوم به دون أيّ معنى، كأنّك كنت تعيش لأجلهم، ولم تعرف يوما غيرهم. كلّ ما يمكنك فعله هو العمل، بأيّ طريقة وعلى أيّ شيء، أن تُبقي يديك مشغولتين كي تلهي عقلك بعيدا عن التفكير بهم، وإن كنت محظوظا، سيكون العمل شاقّا كفاية ليستهلك طاقتك فتنال قسطا من الرّاحة ليلا.

كانت تلك هي استراتيجيتي في العمل الجديد، في البيت الجديد، في تلك القرية الغريب أهلها. كانت بيوتها متفرّقة ومبنيّة بالطوب والحجارة والطين، وطرقها غير معبّدة لا تصلح للسائقين. لا يخجل أحدهم من التحديق في عينيك مباشرة والتلفّظ بشيء ما عنك بلهجتهم القبائليّة، ومهما حاولت أن تكون غير ذلك، فأنت غريب لا تنتمي إليهم ولن تفعل أبدا. كان عليّ أن أتوخّى الحذر لأنّ أيّ سوء تفاهم قد يؤدي بي إلى الطرد إن لم أكن ميّتا بحفرة ما، وهذا صعب كون الجميع يعتقد ألّا حقّ لي بأيّ شيء من قريتهم في نفس البلد الذّي وُلدت وترعرعت فيه، أليس ذلك غريبا؟! لا يردّون عليّ تحيّة الإسلام وذاك ما كان يجمعنا، أملي في عائلة ما دمنا سنجتمع يوما ما بالجنّة. لا يريدون الحديث معي إلّا رغبة في معرفة مكان قدومي وسبب حضوري وأسرار العائلة الّتي أعمل عندها، وحين أعتذر عن الإجابة يشعرون بالإهانة ويخلقون مشكلة ما بالصالة كعذر ومحاولة لبدء شجار ينتهي برحيلي، كيفما كان. أحنّ إلى زمن لم أولد فيه، زمن كان الإسلام يجمعنا ويجعلنا إخوة في الله مهما تباعدت حدودنا وتفرّقت آراؤنا وتنوّعت أصولنا ولهجاتنا ولغاتنا. زمن لا تستند فيه إلى جدار على وشك أن ينقضّ خوفا من غدر صديقك.

أحيانا، عندما كنت في الحرم الجامعي وأستيقظ صباحا على صوت المنبّه، أحسّ أنّني في المنزل، ولا أفيق من ذلك الحسّ الكاذب إلّا حين أنظر حولي ويبدأ عقلي في استيعاب مكاني، ثمّ أبتسم مشتاقا لوالديّ وأحسّ بنوع من الرّاحة حين أدرك أنّني سأراهما قريبا في نهاية الأسبوع. يحصل هذا معي هنا أيضا، أستيقظ ولا أتذكّر أين أنا ثمّ عندما أتدارك الوضع، لا أشعر بالرّاحة على الإطلاق، لأنّني أعرف أن والداي ليسا هنا، ولا هناك، ولا على أيّ مكان فوق سطح الأرض. أمر متعبٌ جدّا أن تبدأ يومك كلّ يوم هكذا.

هُم عائلةٌ لا أجد لهم وصفا من غير الطّيبة والتّقوى. لا يكلّون من الابتسامة في وجهي مهما كان ظرفهم أو مزاجهم، ويهتمون بي جيّدًا في كلّ فرصة تسنح لهم. هناك الجدّيْن، عبد الله الّذي وظّفني وزوجتهُ الّتي يدعوها جميع من في العائلة نانا، وهناك ابنتهما الّتي لا تخرج من غرفتها أبدا، ولولا صلحهم لكان ذلك مرعبا بالنسبة لمخيّلتي، علّها وحش خفي أو مصّاصة دماء ليلية أو قاتله متسلسلة هاربة من القانون، وعلى ما يبدو ابنتها قدر ذات السبع سنوات من عمرها والّتي تكاد، هذا إن لم تفعل بالفعل، تُفقدني صوابي.

قدر؛ مع أنّها تُشعرني بالحمق كلّ الوقت، إلّا أنّها مميّزة جدًّا، ولا أدري إن كان كلامي هذا نابع عن قلّة معرفتي بالأطفال أم أمر مخصّص بها فقط. قليلة الكلام، كثيرة الركض من مكان إلى مكان، تسمع خطواتها الصغيرة تحاول أن تكون هادئة حيت تمرّ على غرفتي خوفا من أن أخرج فأمسكها متلبّسة. تصلّي الصّلوات الخمس في وقتها، حتّى صلاة الضحى وقيام الليل أحيانا. تحفظ أكثر منّي من القرآن وتنامُ على مسامعه كذلك، ما أن تصغي إليه يُتلى على المذياع حتّى تستلقي هناك إلى أن تنام. جميلة ذات شعر غثيث شديد السّواد، بعيون زرقاء ورموش طويلة وبشرة بيضاء كالثّلج النّقي مع بداية الصبح.

لطالما تساءلتُ كيف هي الحياة داخل منزلٍ متواضع وسطَ عائلةٍ ملتزمة، ولم أعتقد يوما أنّ إجابتي ستكون كالتّالي: كأنّك مُنتشٍ؛ ما إن تضع قدمك على عتبة المدخل حتّى تحسّ بنسمةٍ باردةٍ معطّرةٍ برائحة المسك تُنعش رئتيك بأنفاسٍ نقيّة كما لو أنّ الهواء عندهم مُبارك، حتّى أيّام الصيف ودون مكيّف؛ أكادُ أقسم

أنّك مع أوّل خطوةٍ تخطوها داخل البيت، تشعر بالرّاحة والأمان المطلق؛ مجرّد التّفكير به يُشعرك بذلك، ربّما لما يُتلى من قرآن بين جدرانه، أو لقلّة ذنوب أصحابه وكثرة أذكارهم، أو لصلاتهم بأوقاتها وقوّة إيمانهم بفضلها، أو ربّما كلّ تلك الأسباب مجتمعة معا. ما أعلمه هو أنّ داخل ذلك البيت جنّة، جنّة لم أقدر على الاستمتاع بها إلّا قليلا.

قدر، لأنّني لا أكتفي من التّفكير بها، تمكّنت مني؛ لا تبتسم لي، لا تلامسني، تهرب منّي ولا حتّى تقترب ناحيتي، وأحيانا تنتقب حين لا يكون هناك فرار من مواجهتي فأخجل أنا من مداعبتها، جعلتني أعشقها؛ كلّ خليّة في جسدي، كلّ شعور منّي، أنا كلّي، أردت أن أحضنها. أشعر أنّ حضنا واحدا منها سيشفي شيئا بداخلي. لا أدري إن كان شعورا وهميا كَبُر مع صمت براءتها أم أنّني فقط بحاجة إلى عناق يحتويني.

دخلتُ إلى غرفة أمّها مرّة واحدة لأستعير بعض الكتب، لم يكن هناك كتب مثيرة للاهتمام بالنّسبة لذوقي ولكنّني وجدت ما يُساعدني، كما أنّني أخذت كتاب طبخ، لا أعرف لماذا بالتّحديد، ربّما كي أتعلّم شيئا ما منه وأفاجئ به عب الغني يوما ما، أو كي أعتمد على نفسي كليّا.

في الحقيقة، أشعر بأنّني لا أعرف من أنا، أين أنا، وماذا أفعل هنا. أستيقظ كلّ يوم فجرا للصّلاة، ثمّ أتوجّه بعدها للصّالة وأبدأ تماريني الصباحية. حين يبدأ المشتركون بالإقبال، أدخل إلى حجرة المالك وأطالع شيئا ما مدّعيا أنّني لست غريبا هناك؛ في المساء أنظّف الصالة وأعيد المعدّات إلى مكانها، ثمّ أغسل أطباق أكلي وملابس عملي قبل أن أعود لغرفتي، أيّ شيء لأُبعد تفكيري عن نفسي.

لا أحسّ أنّني أنتمي هنا أو لأيّ مكان آخر على سطح الأرض، أردتُ النّوم بشدّة، لكنّ النّوم لا يبادلني الرّغبة، فكنت أطفئ الأنوار وأستلقي في الظّلمة، أتقلّب على ذكرياتهما. قد يبدو الأمر جنونيا ولكنّني أسمعهما أحيانا، يهمسان، يضحكان، يسألان بعضهما عن مكان الأشياء، وما يُثقل قلبي هو عدم قدرتي على البكاء، أتمنى أن أُفرغ تلك المشاعر، أن أفجّر السدّ الّذي بداخلي، أتمنى أن أراهما في أحلامي، لكنّني لا أفعل أبدا، كنت أحسّ بالوحدة الشّديدة.

بما أنّ عبد الله يدفع لي أجري كلّ يوم قبل أن يجفّ عرقي، فكرت بالاستئذان غدا والرّحيل، مع أنّه لم يمض عليّ هنا سوى قرابة الشّهرين ولا أودّ أن أكون من أولئك الّذين لا يستطيعون الحفاظ على وظيفة واحدة لمدّة طويلة. صحيح، لا أريد العودة إلى عبد الغني والتطفّل على حياته الجديدة، وليس لي مكان آخر أذهب إليه، إلّا أنّني أردتُ المغادرة بشدّة، التحرّك؛ الهرب من شيء ما أدرك أنّه بداخلي، لكن أحيانا لا تكون المواجهة خيارا للاستمرار، خصوصا وأنا لا أعرف ما الّذي أواجهه من غير أزمة هويّتي. أحيانا لا يكون بمقدورنا سوى الفرار. عبد الله أحبّني، ولم أكن يوما كاسر قلوب أو مخيب آمال غيري. لا أخيّب سوى ظنّ نفسي. وها أنا أسمع أصواتهم، ممّا يعني أنّهم استيقظوا لقيام الليل.

"ذلك ما أحتاجه، جوابا من الله" همست لنفسي.

انتظرت حتّى هدأت حركاتهم ثمّ فتحت باب غرفتي وأخرجت رأسي لأرى إن كانت أضواء الحمّام مُطفأة. توضّأت وصليتُ ركعتي الوضوء، لكن بدل أن أقوم الليل، اجتاحتني رغبة في تلاوة القرآن، أن أجد إجابتي بين أسطره، أن أضيع في أمثلته ومعانيه، لكن ليس معي مصحف؛ مخجل أنّني تذكرت ان احزم كتبي معي وليس مصحفي. أتذكّر أوّل يوم لي هنا حين استضافوني بغرفة الجلوس، كان هناك مصحف فوق التلفاز؛ لبستُ ملابسي وحضّرت حقيبة ظهري، ثمّ رتّبت فراشي ونزلت الدرج على أصابع

قدميّ ساعيا لكلام الله. حملتُ المصحف وجلست على الأريكة ثمّ فتحته عشوائيا على سورة الكهف، وبدأت أرتّل.

في كلّ مرّة أرتل فيها القرآن، يبدأ صوتي منخفضا حرصا على ألّا أزعج أحدا من حولي، سواء المصلون بالمسجد أم أهل البيت أيضا، لكن كلّما شدّ تركيزي على ما أقرأه، يبدأ صوتي في العلوّ دون وعيّ منّي. كنت أبحث في كلّ آية عن جواب، هل أرحل إلى المجهول أم أبقى دون هويّة؟ لم أستيقظ من نعيمي هذا، نعيم القرآن أين كلّ المشاكل تتلاشى، كلّ الهموم، كلّ الدّنيا، حتّى مكانك الّذي تجلس فيه يصبح نسيا منسيّا، تحتويك روحك حتّى لا تكاد لا تشعر بجسدك الفاني يقرّر مصيرك، ووحدها نفسك تسمو، تعلو إلى موطنها، جنّة ربها، راضية مرضيّة. لم أستيقظ من نعيمي ذاك حتّى فاجأني نعيم آخر.

قدر، ذات السّبع سنوات تنظر إليّ من بعيد بقَامتها القصيرة وشعرها المسدول ولباس نومها الوردي طُرز عليه ورد بريّ. تفرك النعاس من عيونها وتنظر ناحيتي ببراءة ساكنة لم أعهدها قبلا. لم أتوقّف عنّ التلاوة وحاولت ألّا أُعيرها اهتماما كبيرا كي لا أفزعها فتهرب منّي كعادتها. وقفتْ هناك دون حراك تدرُسني، كقطّ أليف يأخذُ حذره منك قبل أن يقترب، وأنا أحاول التركيز على تلاوتي بدل خطف الأنظار إليها، أنتظر خطوتها التالية، وما هي إلّا دقائق أو أقل حتّى تقدَّمتْ أكثر بخطوات متسارعة وكأنّني جدّها تهرول إليه دون توتّر، وكأنّها أخيرا تقبّلتني كفرد من العائلة، وصعَدَتْ على الأريكة بشقّ الأنفس، تتسلّقها ذراعا بقدم، ثمّ جلَستْ جنبي وأسندت ظهرها على الفرشة؛ طول رجليها كان قصيرا مقارنة بامتداد عرض الأريكة، وبقيت تستَمع لتلاوتي في سكينة لا أسمع فيها أنفاسها.

لا أذكر شعوري، أحاول أن أفسر إحساس قلبي لكنّني لا أقدر، أظنّه بمثل ذلك القول المتداول، أطفو فوق السّحب، إلّا أنّ سُحبي كانت ثقيلة وعلى وشك الإمطار. من جديد، تفاجأتُ بها تضع رأسها على جانب صدري، وصدمتني بيدها الصّغيرة تضّمني بحثا عن الدفء داخل معطفي. هنا، في هذه اللحظة بالذات، هذه اللحظة القصيرة، كان تفسيري لمعنى السّعادة، السّعادة الحقيقية، هذه اللحظة هنا، وأنا أشعر بدقّات قلبها ودفء أنفاسها، بيدها على قلبي، كان جوابي. استجاب الله لدعواتي، وهنا، بهذه اللحظة، انفجرت أنا بالبكاء.

شيئا فشيء، آية بآية، وأنا أحصر دموعي خوفا من أن أوقظها. اعتدلت في نومها وجعلت رأسها على ذراعي، كأنّها ابنتي وأنا أُرضعها من قارورة الحليب. لم أكن أستطيع التّلاوة، لم أكن أستطيع حتّى الكلام، توقّفت ما أن توقّف الزمن حولي، ولكنّي لم أغلق المصحف. هجرت نظراتي إلى وجهها الملائكي، ظننتها جميلة قبلا، لكنّها كانت أجمل بكثير وهي نائمة في حضني بين ذراعي. أردتُ لذلك الشّعور أن يدوم إلى الأبد.

بقدر محاولاتي، دموعي لم تعد صامتة، أحسستُ ببلل وجهي وضيق نفسي واعتصار قلبي، فانفجرت بالبكاء. بكيت وكأنّني لم أبك يوما، بكيت لكلّ شيء لم أستطع البكاء عليه قبلا، بكيت لفقدان والدي، لفقدان والدتي، لضياع أهدافي وأحلامي، لخسارة نفسي، بكيت على يوم سقطت فيه من على السلّم واخترع والدي رقصة من العدم ليشتّت انتباهي بينما أمّي تنظّف جرحي بالكحول وتقبّله كلّما لسعني، بكيت لأوّل مرّة كذبت عليهما، وأدركت أنّني لم أملك شيئا غيرهما. لا أقاربا ولا أصدقاء، لا ذكريات لي دونهما، لا حياة بتاتا. لأوّل مرّة في حياتي بكائي لم يشعرني بالضعف بل بالرّاحة، لم يشعرني بالعجز بل بالمقدرة. سألتُ الله جوابا وأعطاني الله إياه، بل وأراني إياه، وضعه على حضني، جوابي كان البقاء. أن أبقى مع قَدَر ما أستطيع؛ قدر كانت قدري.

*** *** *** *** *** *** ***

كنت أقوم الليل ليلة البارحة كعادتي مع قدر الّتي غلبها النّعاس مع أوّل أربع ركعات ونامت على السجادة بالرواق. عزمت على انهاء صلاتي ثم حملها عودة إلى سريري، لكن على حين غرّة منّي وجدتها قد اختفت. خرجت إلى الرّواق لأرى إن كانت بالحمّام فسمعت قرآنا يُتلى من أسفل الدّرج وأدركت أنّ ابنتي ستكون هناك بالتأكيد؛ مع أنّها تنام على مسامع القرآن دوما، إلّا أنّ هذه كانت أوّل مرّة أراها فيها تستيقظ من نومها لتذهب وتنام من جديد جنب القرآن الّذي يُتلى، ولأوّل مرّة أيضا أراها تنام في حضن غريب، الغريب الّذي تقول عنه أحمقا، ولأوّل مرّة أرى رجلا يبكي في ليلة أكثر ممّا بكيت أنا في حياتي وبتلك الغزارة، حتّى حين تمّ الاعتداء عليّ كنت مشغولة أتظاهر بالصلابة والقوّة لم يكن الأمر مخيفا بالنّسبة لي، لأنّ وجهه لم تكن عليه ملامح الانحراف أو رياء النفس، بل كانت تحيطه هالة من النور جعلته يكتسي نوعا من العاطفة وقليلا من الحزن وكثيرا من الانهاك، كأنّ لديه سببا للبكاء، منذ أن كان شبه ميّت، عاد للحياة رويدا. لا أعرف علاقة ابنتي بذلك، وكلّ هذا جعله غامضا بالنّسبة لي كأنّه كتاب لن أتمكّن من قراءته أبدا. مع أنّ ابنتي قدر كانت نائمة على حضن رجلٍ انفجر باكيا بشكل مثير للشك فور ملامستها له، إلّا أنّني كنت مرتاحة لسبب ما وسعيدة بشكل غريب.

كانت أوّل مرّة أراه فيها، وكان تماما كما تخيّلته من مواصفات أبي، نحيل نوعا ما وذاك جعله يظهر أكثر طولا ممّا هو عليه، عيناه كبيرتان بشكل جعل وجهه يرتدي حلّة من اللطف والبراءة وقليل من الطّفولية الّتي كان يحاول اخفاءها عبثا تحت لحيته الغثيثة. لا أصدّق أنّ سبع سنين مضت منذ أن رأيت بشريا غريبا عنّي. كرهت النّاس لما فعله بي ذاك الذكر وأمّارته بالسّوء إيناس، سامحهما الله، وكنت قد كوّنت في عقلي صورة لكلّ البشر على أنّهم وحوش ذوو جلد آدمي، لكنّ سراج الدّين كان مختلفا لأنّني لم أصنّفه من البشر، كنت قد فعلت لمّا سمعت بقدومه وخفت من قربه كذلك، لكن ليس إلّا لبضع أيّام بعد وصوله. هناك نورٌ تستطيع أن تراه يضيء حوله بالطيبة، تستطيع الشّعور به عميقا، وأعتقد أنّني أحببت، بل أردت أن أؤمن أنّه نور الإيمان، نور الأخلاق والقرآن.

الحياة غريبة، أحيانا ننظر إلى الواقع بعين الحاضر فنرى أنفسنا نركض في دائرةٍ لا مخرج منها، نفس اليوم يُعاد ونفس الروتين؛ نألف الأمر لدرجة كبيرة تجعلنا ننسى أنّنا نكبُر بالسنّ كلّ يوم نحو نهاية قادمة لا مفرّ منها ولا مساومة بأجلها. أبي يشيخُ أمام عيني. أمّي أصبحت طريحة الفراش أكثر ممّا هي خارجه، تدّعي الصّحة كي لا تزيد طين مخاوفنا بلّة؛ ابنتي قدر لا تعرف من الحياة سوى أصلها، عبادة الله وحده لا شريك له. كلّ يوم خائفة من أن تدخل غرفتي وتسألني عن والدها. أظنّ أنّ ما أحاول قولهُ هو أنّني أخشى المستقبل، أو الزّمن، الوقت يُسرق منّا بكمّيات هائلة لا تعوّض، أخشى أن يأتي اليوم الّذي أضطر فيه للعمل في صالة أبي تحت أنظارهم وعلى مسامع أقوالهم وأحكامهم وتحرّشاتهم فقط لأعيل أمّي وابنتي، أخشى أن تتغيّر ابنتي وأدعو الله دائما أن يبقيها نعمة كما جعلها أوّل مرة. الخوف يقتُل.

أحيانا أخرى ننظر إلى الواقع بعين "المحتّم". كلّنا سنموت، إنّنا نحتضر الآن بالذات، ولا أدري لم النّاس يحبون تسمية ذلك نظرة سلبية أو تشاؤميّة للحياة إن كانت واقعيّة. أعتقد أنّهم لا يحبون الحقيقة الّتي لا تعجبهم فقط، لا يحبون ما سيفسد عليهم لهوهم. إن أحسنّا العبادة فسنلتقي من جديد ولن نفترق بعدها أبدا، لكن مع هذا، أجد نفسي أنانيّة لرغبتي في الموت قبل أن أعيش لأرى أيًّا من مخاوفي تتحقّق، ثمّ أحتقر نفسي لرغبتي تلك؛ سبّبتُ الكثير من الألم لوالديَّ وموتي أوّلا سيقتل كلّ سببٍ صمدا لأجله كلّ هذا الوقت، قاتلا لأجله. صحيح أنّي أصلّي الصّلاة في وقتها، أرتدي نقابا أستر به نفسي ونفوس الرجال حولي سواء من أحبّوا رؤيتي دونه أو من كان يجاهدون أنفسهم لغض البصر، لا أستمع للموسيقى ولا أجد فيها إلّا ملحا يُرشّ على جراح لن تلتئم به ولن تتطهّر، أقوم الليل وأقرأ القرآن ليلا ونهارا، ولا أفصح عن هذا مفخرة

أو رياء، أو ظنّا بأنّي أحسن من غيري، لست كاملة إطلاقا ولدي عيوبي، أنا فقط أحاول جاهدة أن أقوم بفرائضي وسنني، سواء أعجبني هذا أم لا، أنا مدينة لوالديَّ، وإما أكون دُفعة لهم للجنّة أو دُفعة للنار.

منذ تلك الليلة وسراج الدّين يتلو القرآن على نفس الأريكة، وقدر كلّ ليلة تنام في حضنه. لم يتغير شيء بها أوقات النهار، ما تزال تتجنَّبه وتهرب منه، وما تزال متيقّنة أنّه أحمق أيضا، كأنّها لا تذكر ماذا يحصل بينها وبينه ليلا فور ما تستفيق. هو أيضا لم يتغير، لا زال سراج الدّين الّذي دخل عتبة بابنا أوّل مرة، لا زال نفس الشّاب الخجول الكادح في العمل، بعض النّاس لا يتعوّدون بسرعة.

لقد أنهى قراءة كلّ الكتب الّتي استعارها منّي، حتّى كتاب الطّبخ الّذي لا أرى لحدّ الآن لما كان مهتمًّا به، أنا لم أنته من كتاب واحد من كتبه وتلك نوعا ما إهانة بالنّسبة لي. صحيح أنّ مطالعة الكتب ليست منافسة ولكنّني حسّاسة حين يتعلّق الأمر بها، خاصّة عندما يهزمني شابّ يعمل طوال النهار ولا يضيء ضوء غرفته للقراءة ليلا. كيف يجد الوقت لذلك؟!

# الفصل الخامس

طبعا أحببتُ من قبل، أحببت والديّ أكثر ممّا ينبغي، أو أقل بكثير نظرا لمكانة الوالدين في ديننا، لكنّني لم أعتقد يوما أنّني سأحب غريبا لدرجة أنّني سأتخلّى عمّا أحبّه لأجله. أحبّ قدر جدًّا لدرجة أنّني سأستعمل ما جمعتهُ من أجري اليومي لأشتري لها ما سيجعلني أتقرّب منها عوضا عن شراء أيّة كتب جديدة.

- ماذا الّذي تفعله يا سراج الدّين؟ (سألني عبد الله)

- لقد لاحظت فجوة في الحائط وأنا متأكّد أنَّ فأرا بادلني التّحيّة منها، لذا أنا أحاول غلقها. نحن لا نؤجّر غرفا بالمجّان، صحيح؟

ضحك عمّي وقال:

- يا بني، أنت تحرجني؛ نحن لا ندفع لك ما يكفي وأنت تقوم بأكثر ممّا يجب.

- لا يا عمّ، لا إحراج في ذلك؛ لديّ الوقت، كما أنّني أحبّ ذلك نوعا ما.

- لا أعلم كيف سأرد لك خيرك يا بنيّ!

- لا حاجة لذلك، لكن يمكنك أن تسدي لي معروفا.

- طبعا، قل ما شئت تجده حاضرا.

- قدر...

- ما بها؟!

- أريد أن أعرف ماذا تحب، هل لديها حلويّات مفضلة أو نوع من الألعاب تفضلّه؟

- تحب القرآن، لكنّني يبدو أنّك تعرف هذا بالفعل.

- نعم، هذا ما يقربني لها بالليل، ولكن بالنّهار، لا تزال تتعامل معي كغريب!

- آه نعم، إنها تقول عنك أحمقا! (قال مبتسما)

- أعجبتني كلمة غريب أكثر، لكن...أحمق؟!

- هي لا تهين أحدا، لذا أنا متأكد من أنّك تعجبها كثيرا، لهذا تدعوك بالأحمق كي نعتقد نحن العكس تماما.

- هذا مطمئن، لكن أريد أن أتقرّب منها أكثر، ماذا تحب؟ ماذا يعجبها؟

- ابني سراج الدّين، هي ليست طفلة عاديّة. في صغرها لم تتعبنا يوما ولم توقظنا ليلا ولم تبكي حتّى من أجل الحليب، وحين كبرت لم تطلب منّا شيئا ولم تقل يوما أن شيئا ما أعجبها أو أنّ طعاما ما لم يُعجبها؛ نحضر لها الألعاب فتلعب بها، لكن ليس لحدّ الإعجاب، فعندما تسمع القرآن أو يحين موعد الصّلاة، تترك كلّ شيء من يدها. حتى السكريّات، تأكل ممّا أُحضره لأمّها ولا تطلب منه شيئا فوق ذلك. تلك الفتاة رزق من الله، نعمة فزنا بها بعد صبر طويل من بلاء عظيم.

- بلاء عظيم؟!

- سأخبرك يوما ما، إذا نجحت بنيل إعجاب قدر وجعلها تظهر حبّها إليك أمامنا.

- هل هذا يعني أنّك تسمح لي بالمحاولة؟!

- نعم، سيكون هذا ممتعا للمشاهدة! إن لم تكن قد لاحظت، التلفاز معطّل، ولا بأس ببعض الترفيه.

رغم ضحكة عبد الله المكبوتة، إلّا أنّني كنت أعرف ما ينتظرني، أو على الأقل هذا ما ظننته. بدأت تجربتي بشيء بسيط، دمية باربي الصغيرة، فكلّ الفتيات يحببنها وظننت أنّها ستعجبها لأنّها تشبهها مظهرا، ذات شعر طويل وعيون زرقاء. وضعتها داخل علبة هدايا مزيّنة أمام غرفة أمّها بعد صلاة الفجر، وحين عدت ليلا وجدت الدّمية معلّقة بمقبض بابي برباط حذاء. الحبل حول عنقها والعلبة على الأرض ككرسيّ أزيح عنها. جعلتْ المشهد يبدو وكأنّ الدّمية انتحرت. فاجأني ذلك، أرعبني قليلا أيضا، فنزعت الجثة...أقصد الدمية، ودخلت غرفتي. بعد مدّة ليست بطويلة طرق عبد الله بابي فأذنت له بالدّخول.

- هل تلقيت الرسالة؟! (سألني ضاحكا)

- نعم، وكانت واضحة جدا؛ بصراحة لقد أرعبني الأمر!

- ونحن أيضا، صدّقني!

- من أين لها بهذه الفكرة؟!

- سألتها فأجابت أنّها فكرة من كتاب طالعته مع أمّها.

- حتّى في الكتب، على الإنسان أن يحذر ممّا يقرأه أبناؤُه!

ضحك وقال:

- أوافقك الأمر؛ بقدر ما رغبت بنهيها عن فعل ذلك، أردت رؤية ردّة فعلك.

- إذا كنت تقصد أنّني سأنام والباب مغلق من الآن فصاعدا، فنعم!

- إذن، هل تستسلم؟!

- لا، لقد بدأت للتّو، لماذا أنت مهتم فجأة؟!

- حسنا، أنا والسّيدة قررنا تحويل الأمر إلى مباراة؛ أنا أقول أنّك ستفشل وهي تقول أنّك ستنجح!

- لا أصدق أنّك ضدي!

- لا أصدق أنّك تحاول التقرّب من قدر! أين أوصلك البداية؟!

- البدايات دوما أصعب!

- لماذا تحاول التقرّب منها على أيّة حال؟

- لا أدري، إنّها تشعرني بالسّعادة، بنوع من الرّاحة. تعطيني معنى لحياتي، هل تفهم قصدي؟!

- حسنٌ (أومأ برأسه) استمتع بوقتك طالما تستطيع، فيوما ما ستكبر هي ولن تراك سوى مجرّب أجنبي عنها وغريب.

كان محقا وآلمني ذلك؛ لم أكن أريد التقرّب من شخص آخر ينتهي بي الأمر بفراقه من جديد، لكن معها هي، شعرت بأنّ الأمر يستحق العناء.

جرّبتُ بعد ذلك الكثير من الهدايا والأكلات السريعة، لكن لم أحصل على أيّ نتيجة، كان كلّ شيء يعود إليّ بطريقة أو أخرى. كنت في الليل جليسها وفي النهار غريمها؛ جرّبتُ الأساور والقلائد والخواتم البلاستيكية، جرّبتُ الألوان فلوَّنتْ مِقبض بابي لأنّها كانت تعلم أنّني لن أنتبه له مع ظلام الرواق، جرَّبتُ عجين الصلصال فكتبت به "محاولة جيّدة" بمنتصف بابي، جرّبتُ كتب ألعاب الذّكاء المليئة بالكلمات المتقاطعة والألغاز، فألصقت كلمة "أحمق" على حائط غرفتي باستعمال حروفها. أهديتها قصصا للتلوين فلوّنت كلّ شيء بالقصة عدا ما يفترض بها تلوينه. تلك الفتاة ستفقدني صوابي!

*** *** *** *** *** *** ***

عليَّ أن أكون صريحة، تلك الحيلة الّتي قامت بها ابنتي على الدمية أرعبتني كثيرا؛ قرّرنا بالإجماع على ألّا أقرأ أمامها الك النوع من الكتب بعد الآن. لكن من جهة أخرى، أشعرتني بالفخر ولا أعتقد أنّني سأخاف عليها من الذكور، بالأحرى، سأخاف عليهم. لا أُنكر أنّنا أقمنا مسابقة من نوع ما، كالعادة أنا ضمن فريق والدي؛ لم أكن متّفقة مع الفكرة مائة بالمئة، لكن بعد الدّمية المشنوقة قرّرت أنّني الحمقاء إن لم أدخل فيها.

شعرت بقليلٍ من السّعادة لمَّا أخبرني أبي أنّ قدر نوعا ما تُساعد سراج الدّين في تخطّي عقبات حياته. لم أكن أدري كيف، لكن ينتابني شعورٌ بالرّاحة والطمأنينة تّجاهه حتّى وإن كان ما يزال كالكتاب المغلق بالنّسبة لي.

ابنتي تطيعني جدًّا وتحبّني، ليس كحبّ أمّ فقط بل أكثر، تحبّني كأنّني الشّخص الوحيد الّذي تعرفه في هذه الدّنيا، وفي ذلك نوع من الحقيقة. طبعا، بما أنّها تُطيعني، لن أجعل مهمّة سراج الدّين سهلة، أنا لست شرّيرة أو لئيمة، ولكن هذه متعة لا تأتي كثيرا هنا ولن أجعلها تنتهي بسرعة.

ذاك الشاب لا يستسلم أبدا. لقد حاول كلّ يوم من أيّام الأسبوع الماضي، قصصا ملونة، ألوانا وأشكال، ألعابا وكتب أطفال، ولكن قدر كانت تعيدها دوما لباب غرفته مع رد خاص من نوع ما يناسب ما أحضره لها. كنت أساعد بالتّأكيد، فلولا مساعدتي لكانت الكلمة الوحيدة الّتي سيقرأها على باب غرفته هي كلمة "أحمق".

عليَّ أن أعترف بأنّني أعتبر هذه المسابقة لعبة، وكذلك قدر، لم تكن ترفضهُ لأنّها لم تعجبها هداياه، لكنّها ترفضه للمتعة الّتي نحصل عليها نحن بالمقابل، وصراحة كانت تلعب كثيرا بما يحضره لها فجر كلّ يوم إلى حين موعد عودته ليلا، ومع أنّني أستمتعُ إلّا أنّ ذلك آلمني بشكل ما. شعور جميل أن يهتم شخص غريب بابنتي وأنا أراها تبتسم أكثر فأكثر كلّ يوم. عندما تسمعُ خطواته فجرا أمام باب غرفتي تدلف ببطء ناحيته وتقف خلفه هناك كالطفلة الصغيرة هي، تحترق شوقا لتكتشف ماذا وضع لها هذه المرّة، لم أرها تتصرّف كطفلة صغيرة يوما، بهذه العفوية والطفولة. ربّما هو الحنان والحبّ الّذي تفتقده في الأب، ومع أنَّ أبي لا يحرمها شيئا، إلّا أنّه ليس نفس الشعور، ولن يكون أبدا.

رغم أنَّ هذه المسابقة أعادت فيَّ لحظات طفولة فقدتها، إلّا أنَّ ابنتي أَوْلى من نفسي، ولهذا قررت أن أخفف قليلا عن سراج الدّين، حتّى إن كان ذلك يعني خسارة المباراة ضدّ أمّي. أخبرت أبي أن يقترح عليه إحضار قطع الحلوى بذوق "الكوكاكولا" فلقد كنتُ مجنونة بها في صغري وربّما ما زلت، لكنّني لا أدري لما لا أرغب بها مثلما كنت، لعلّي نضجت أو لعلّ المشاكل الكبيرة في الحياة تمنعك من الاستمتاع بالأشياء الصّغيرة الّتي تسعدك، ومن يدري، بما أنَّ قدر ورِثت كلّ شيء من عندي، لعلّها ورثتْ حبّي لها أيضا.

لم يتأخر ولو بيوم، دلف تلك الليلة ناحية باب غرفتي وبقي واقفا هناك. سرعان ما أدركت أنّه لن يقوم بوضع الهدية كعادته ثمّ الرحيل، بل سيقوم بخطوة جريئة جدّا.

- قدر، هل أنت هنا؟ (طرق الباب ثلاث مرّات)

انتفضتُ من فراشي وذهبت خلف الباب مع قدر تنتظر منّي اقتراحا بأيّ ردّة فعل، فنهضتُ بسرعة مجدّدا وأحضرت كرّاسة أكتب فيها الرّدود لقدر كي تردّدها على مسامعه.

- نعم؟

- هل يمكنني الحديث معك؟

- ماذا تريد؟

- وجها لوجه

- لا!

صحيح أنّني قلت سأخفف قليلا عليه، لكن هذا لا يعني أنّني لا أستطيع أن أحظى بقليل من المرح.

- حسنٌ، لديّ هنا حلوى بذوق الصّودا، هل تريدين بعضها؟

- وماذا تريد بالمقابل؟

- عناق؟

- وقح!

ضحكتُ في صمت بشدّة حتّى أحسست بقلبي سينفجر ووجهي يحترق احمرارا لأنّني لم أخبرها أن تقول له ذلك، حتّى هو وضحك قليلا.

- حسنا، قبلة في الخد إذن؟

- مقزز!

- ما رأيك بابتسامة من عندك لي أنا؟

فكرتُ قليلا في هذه الأخيرة ثمّ وافقت. أومأت لها برأسي لتجيبه بالإيجاب، ولكن قبل ذلك أحضرت مرآة صغيرة ووضعتها مقابل الباب لأرى انعكاس صورته حين تفتحه؛ فَتَحته بملامح وجه لا يبدو وكأنّه ابتسم في حياته ولا أنّه سيبتسم في وقت قريب. كان يحمل في يده كيسا كاملا من الحلويات. بعد مدّة قصيرة من تبادل النّظرات بينهما، مدّت شفتيها بابتسامة مرغمة على حين غرّة ثم أعادت عبوسها مباشرة ومدّت يدها تنتظر.

- هذا غش! (قال مبتسما)

انحنت للخلف لترى موقفي من هذا، فمنحتها الموافقة. نظرت إليه من جديد ثمّ ابتسمت ابتسامة خجولة وجميلة، لكن بنفس الوقت سعيدة، كأنّها تعنيها حقًّا. راضيا بها، حمل قطعة حلوى واحدة من الكيس وأعطاها لها.

- ما هذا؟! (سألته)

- حلوى!

- واحدة؟!

- نعم، القطعة بابتسامة واحدة. كلّما تريدين المزيد، تعالي وابتسمي لي.

- ألا تعلم أنّ معظم حوادث اختطاف الأطفال تبدأ بقطع الحلوى؟

- لا، لم أكن أعلم...كنت آمل أن تصفيني بالبخيل أو الأحمق، لكن هذا...مستوى جديد من الانحطاط بالنسبة لي!

بالنسبة لي أيضا، لأنّني لم أخبرها أن تقول هذا، أنا مندهشة بقدره تماما. أخذتْ قطعة الحلوى من راحة يده ثم! نظرت إلى عينيه مباشرة.

"بخيل!"

ثمّ أغلقت الباب. نظرتْ إليَّ وكأنّها تذكّرت شيئا فجأة، ففتحتْ الباب من جديد وخرجتْ إليه في طريقه لغرفته ثمّ عادت ومعها ثلاث قطع حلوى أخرى.

- ماذا فعلت؟!

- ابتسمت له ثلاث مرّات إضافية.

- لماذا؟!

- لك ولجدّي وجدّتي.

هذه هي ابنتي؛ أخذتها وعانقتها حاملة إيّاها للسرير. لا تفكّر في نفسها قط، غير أنانية بتاتا. أحيانا تتظاهر بالشّبع حين لا يكون هناك خبز يكفي الجميع، أحيانا تتخلّى عن حصّتها من الفاكهة عندما يكون أحد آخر بحاجتها لصحّته أكثر منها. هذه هي ابنتي ولا أستطيع أن أصف مقدار الفخر والسّعادة الّتي تُشعرني بها. استلقيتُ على الفراش معها نأكل الحلوى ونستمتع بها. سقطتْ منّي دمعةٌ غصبا وأنا أراها بتلك السعادة تتلذّذ بقطعة حلوى، فأنا أمّها.

- لذيذة، أليست كذلك؟!

- نعم، ولكن جدّي وجدّتي لا يعلمان بها

على وقع تلك الكلمات انضمّا إلينا.

- ماذا حصل؟ هل نحن نخسر؟ (سأل أبي)

- كالعادة (قالت أمّي)

نظرتُ إلى قدر بعالمها الخاصّ تركضُ بلسانها خلف تلك القطعة وأنا أعرف أنَّ استمتاعها بها لم يكن بسبب الحلوى فقط بل بسبب سراج الدّين أيضا.

- لا، نحن نفوز (أجبته مبتسمة)

فهم الأمر دون داع للشرح وتقبّله برحابة صدر؛ أطعَمَته أمّي قطعته الخاصة وقضينا الوقت على فراشي نتسامر بذكريات الماضي العزيزة؛ لم أستطع سوى التّفكير بما يشعر به سراج الدّين الآن، هو في

عالم من الوحدة على الأرجح يبدأ تمارينه بالصالة، وأنا في عالم أخر بغرفتي مع أبي وأمّي وابنتي. بعد أن أدركتُ مدى سعادتي، حمدت الله على نِعمهِ ورضيت بقدره، ثمّ أدركت أيضا، سراج الدّين يحتاج لابنة أكثر ممّا تحتاج قدر لأب، لأنّها بطريقة ما تُحسُّه بالحبّ وطعم الحنان الّذي فقده. ربّما بتلك الليلة الّتي نامت فيها على حضنه، أيقظت فيه ما أطفأته المآسي، أو ربّما خلف وجهه البريء ألف قصّة لم تُحكَ بعد؛ نحن لا ندري فعلا ما يخفيه البشر من عذاب تآكلهم أحياء، سواء كان ألمهم جزاء أم قدر. منذ ذلك الحين، كلّما كان في المنزل، أُلمّح لِقَدر بمدى اشتياقي لطعم تلك الحلوى، فتذهب إليه وتحضر أربعة قطع مقابل أربعة ابتسامات. أتمنّى حقًّا أن يبتكر خُططا تقرّبها إليه أكثر وألّا يتوقّف عن المحاولة أبدا.

# الفصل السادس

لا أدري كم مضى عليّ هنا، لكن يبدو وكأنّني البارحة فقط بدأت العمل. لا أدري إن كنت أنا من يعيش في الماضي لدرجة أنّني لم أعد أحسّ بالحاضر يمرّ عليّ مهرولا، أم أن الوقت أصبح يتطاير محقّقًا لإحدى علامات السّاعة المذكورة. ربّما شغلتُ نفسي كثيرا كلّ يوم لدرجة أنّني لم أعد أشعر بالوقت، أو ببساطة لم أعد أهتم.

تلقيت رسالة من عبد الغني يقول فيها:

"السلام عليكم ورحمة الله. بني، لا أعلم كيف حالك هناك، فأنت نوعا ما فاشل في علم الاجتماع. لقد عشتَ في حيّنا هذا سبع سنوات لم تكسب فيها صديقا واحدا، ولم أرك تسهر يوما مع أحد غيري، لذا أريدك أن تعرف جيدا وتتذكر دوما أنّه سيكون لك أهل هنا ومنزل دوما.

عائلتي تحبّك دون حتّى أن تعرفك؛ لا أدري إن كنتَ بشرا أو ملاكا مرسلا من الله، ولكنّني أدري أنّك جعلت والديك فخورين جدًّا. تخيّل! ابنتي رفضت الزّواج دوني، دون والدها، وبما أنّنا اجتمعنا، عقدتُ خطبتها بالشهر الماضي، وأنت مدعو طبعا لحفل الزّفاف. يبدو أنّهم لم ينسوني بعد كل شيء، شعور جميل حقًّا أن تكون محفورا في قلوب الآخرين بالخير يفكّرون بك أينما كنت أو كيفما كنت، شعور جميل حقًّا أشاركك إياه لأنّك تعيش فينا ومنّا كلّ يوم.

بالمناسبة، لقد أصبحت قيّم المسجد، وحفيدي الأكبر، الذّي يكتب هذه الرسالة الآن، أصبح لا يفارقني وبجنبي في كلّ صلاة وعمل؛ غريب جدّا كيف بدأ النّاس يحترمونني بمجرّد أنّني لم أعد أعيش بالشارع، هناك بعض الأقاويل عنك والإشاعات الّتي لمستني أيضا، لكنّني أبقيتها كما هي ولم أحاول تصويبها، لم أعتقد أنّك ستحبّ هذا.

لقد فتحتُ المطعم ووسعتُ فيه ليشمل الرّواق وأعدت تفصيل المنزل كليّا بمخطط والدك الأصلي لمنزل أحلام أمّك رحمهما الله. العمل جيّد، بل ممتاز بفضل الله تعالى؛ كلّ أبنائي يعملون فيه، منهم حتّى من يعمل نهارا في وظيفته وليلا في المطعم معي، وأنا سعيد لأخبرك أنّنا لم نكن يوما أكثر سعادة. الكلمات لا تستطيع وصف ما فعلتَهُ لي ولعائلتي، لا يمكنني حتّى أن أصف مشاعري، لقد أعطيتَني منزلا وأهلا، لن أموت وحيدا وذاك كان خوفي الخفيّ أنا، وفي كلّ صلاة وكلّ دعاء أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعك بأهلك في الفردوس الأعلى كما جمعتني بأهلي في الدنيا، ويؤمّنك من كلّ مخاوفك.

أعلم أنَّ هذه الدّنيا لا تهمُّك، ولا يجب أن تهمّ أحدا فهي زائلة. لا مالَ ولا أجرَ في الدّنيا قد يمكِّنُني من ردّ المعروف إليك، لذا بدل ذلك نحن نقدّم الأكل مجانا للمتشردين وعابري السّبيل والفقراء، ولقد تصدّقت بملابس أبيك وأمّك عليهم ووضعت الماء البارد خارجا لكلّ مارّ صدقة جارية لك ولأهلك.

يسألني الجميع عنك بدافع الفضول؛ أعلم أنّهم كانوا يكرهونك بسبب غيبة وغباء بعض البشر، وكلّما يسألونني أجيب بفخر عمّا فعلته لي ولعائلتي؛ يسألونني كلّ يوم إن كنتُ قد سمعتُ عنك أخبارا جديدة.

غريبة هذه العباد، يكرهونك بسبب كلام النّاس ويحبّونك لكلامهم، ولو عرفوك ولو بقليل كما عرفتك أنا لأحبّوك لقلبك بقلوبهم. لا أُنكر أنّني أحنّ إليك وأشتاق إلى الحديث معك. رغم فارق السّن بيننا إلّا أنّني أعتبرك كأغلى صديق حظيت به، حتّى أبنائي يشعرون بالغيرة لحديثي عنك كلّ يوم. لم تكن كثير الكلام ولكنّك كنتَ تفعل الكثير وإن لم يظهر عليك ذلك، كثير الاهتمام ومفرط التفكير، كنتَ تشاركني أكلك وملابسك، أهلك ومنزلك، ابتسامتك الغالية الّتي تقابلني بها كلّ صباح مهما كان مزاجك، مرضك، أو شدّة تعبك؛ تنير يومي وتدفّء قلبي، كشمس تمسك عنّا عواصفها وإن أكلتها داخلا. حتّى في أيّام الشّتاء حين يقطعون عنكم التّدفئة، كنت تخرج للبرد لتجلس معي أمام نار الحطب كي لا أشعر بأنّكم تخلّيتم عنّي.

صدقني ابني، أعلم أنّني أطلت الكلام. ذلك لأنّني مهما قلتُ ومهما فعلتُ فلن أجازيك لا أنت ولا أهلك كما آويتموني كفرد من العائلة، أو كما أعدتَ لي عائلتي، لو ترى دموعي لعرفت مقدار ما أشعر به من مشاعرٍ لا أفهمها. حفيدي يحبّك ويطلب منك أن تعذره على خطّه فهو مبتدئ في الكتابة، يجب أن يرى خطّك، سيقتنع أنّه أفضل بكثير ممّا يعتقد.

ملاحظة: اِحرص على ألّا تفوتك صلاة الجمعة في السّادس عشر من شهر مايو القادم.

لا أدري ما سأقوله في الختام فأنا لا أريد التّوقف؛ لذا سأختمها بالسّلام على أمل أن ألقاك في الدّنيا بخير قبل الآخرة في الجنّة بإذن الله.
السّلام عليكم ورحمة الله."

- لماذا تبكي؟ (فاجأتني قدر من خارج الغرفة)

- لم أركِ هناك، لابد من أنّني نسيت الباب مفتوحا. هل يمكنك إغلاقه؟

- هل بإمكاني الدّخول؟

- طبعا!

دخلتْ وأغلقتْ الباب وراءها، وهذا شيء لم تفعله قبلا؛ استلقتْ جنبي ووضعتْ رأسها على صدري وأنا كردّة فعل غير مقصودة، احتضنتها بيدي، غير مصدّق أنَّ قدر الشهيرة على صدري الآن دون قرآن.

- لماذا تبكي؟!

- آه، صديق لي. جار سابق أرسل إليَّ رسالة.

- هل هو بخير؟

نظرتُ إلى الرّسالة في يدي ولم أجد سوى الابتسام.

- نعم، في الواقع هو على خير حال والحمد لله.

- إذن هي دموع سعادة؟

- لا أدري، ربّما!

- هل يمكنني أن أقرأها؟

- لا أظنّك ستكونين قادرة على فهم خط الكتابة.

- أتركها عندي وسأتدبّر أمري.

ظريفةٌ هي بجمالها، بقصر قامتها، بطريقة كلامها، بحيائها، كنتُ كالأحمق أتلعثم أمامها ولا أرفض لها أمرا، ربّما هي محقّة بشأني بعد كلّ شيء...أنا أحمق!

- حسنا، أحرصي على أن تعيديها إليّ حين تنتهين منها.

- هل ستردّ عليه؟

- لا أدري.

- لماذا؟

- ليس لديَّ شيء لأردّ به.

- لديك نحن. (قالتها بسرعة وغادرت حضني)

- انتظري، ألا تريدين الحلوى؟!

- آه، صحيح!

ابتسمت لي أربعَ ابتسامات، ففتحت الكيس أمامها وأخذتْ أربعة قطع منه، وفور ما كانت تهم بالمغادرة، توقّفت فجأة وكأنّها تذكّرت شيئا، نظرت إلى عيوني غارقة بالتفكير، ثمّ أخذت قطعة خامسة من الكيس ووقفت على أصابع قدميها مقبلة ناحة وجهي، طبعت قبلة على خدي...قبلة الحياة.

كانت قبلة ملائكية، ناعمة، معطّرة بأنفاس مسكيّة، لا أدري كيف أصفها. ربّما أنا حسّاس أكثر ممّا ينبغي إلّا أنّني ذرفت دمعةً حاولت إخفاءها بابتسامتي لكنّها لاحظتها. مدّت يدها الصغيرة ومسحتها من على وجنتي، ثمّ ناولتني قطعة الحلوى الخامسة وغادرتْ راكضةً في استحياء من فعلتها. كانت البراءة تقطر منها، مشبّعة بها.

*** *** *** *** *** *** ***

أعطتني ابنتي رسالةً لأقرأها لها؛ رسالة موجهة إلى سراج الدّين مِنْ ممّا يبدو أنّه جاره في منزله القديم؛ رغم أنّي عرفتُ منها الكثير عن قلبِ الشّاب إلّا أنَّ غموضه ازداد؛ يبدو أنَّ هذا الرجل أينما يذهب يترك أثرا جميلا في قلوب وحياة الآخرين؛ أشعر بالأسف لأنّ لا أحد يساعده بالمثل.

قرأتُ لابنتي الرّسالة وأنا آكل معها الحلوى الّتي أحضرتها لي. لا أدري لمَ بَكِيَتْ أو إن كانت لاحظت نفسها تبكي، فصوتها عاديّ وتصرّفاتُها كما هي. لم أمسح دموعها ولم أجرأ على سؤالها عنها. أعدت إليها الرّسالة لتعيدها إلى سراج الدّين ثمّ دلفت إلى غرفتي كأنّ شيئا لم يحصل.

لابدّ أنّ الأمر غريب، الحياة كلّها غريبة، طرق الربّ غريبة، أن يخسرَ عائلته كلّها في أيّام معدودة، أن يعيش دون أقارب، أن يرحل عن حيّه الّذي تعوّد عليه وينتقل لحيّ لم يألفه ويعيش بين أهل لا يعرفهم ويعمل وسط أناس يتكلمون فيه غَيْبا ويصنعون الأكاذيب عنه. أنا لم أكن لأحتمل ذلك، خاصّة بين أناس يحملون هويّة الإسلام ويتصرفون دونها. أنا بكلّ مشاكلي سعيدة، ليس فقط بسبب رضائي بقدر الله ولكن برِضا الله عنّي أولا، ولا أستطيع تخيّل العيش مثلهم، لأنّ كلّ ذنب يزيد البعد عن الله، والبعد عن الله يزيد البعد عن الجنّة، وكلّ هذا يخلقُ اختناقا وضيق نفس وإحساسا بالضّياع، تماما كمن ترك الصلاة. لكن رغم عِلمهم بهذا، لا يزالون في عدائهم، في عصيانهم، في علاقاتهم المحرّمة الّتي لا تستمر طويلا لأنّ الله لا يُبارك في شيء حرّمه، في كلامهم الفاحش وملابسهم الملوّثة، غيبَتهم ونميمتهم وحقدهم وفوق كلّ هذا، جهرهم بكلّ هاته الذّنوب.

لا أدري متى تحوّل المسلمون وأصبحوا بهذا الغباء الّذي سمح للعدو أن يتوغّل داخل قلوبهم ويسكن في عقولهم على مدى الوقت؛ منذ أن كان الجميع يتّبعون تقاليدنا وعاداتنا لخلق مجتمع آمن، يعيشون على قيمنا ومبادئنا لتكوين بلد عادل، أصبحنا إمّعة لهم حتّى في لبسهم وكلامهم ونزواتهم. الشّباب بمقتبل العمر يكوّنُون عصابات كما في الأفلام، ويخلقون العداء بين الأحياء ويزرعون الرعب في الشوارع؛ يتمرّدون على الأخلاق والمبادئ ويصنعون شخصيّات مبنيّة على الخداع والكذب. منذُ أن كان المسلم يفدي أخاه بروحه وماله، أصبح يطعنهُ بدم بارد لأجل فتاة أو تبادل للأنظار أو تصادم بالأكتاف، يغرز فيه سكّينا لأنّه وطأ على عقب حذاءه. نحفظ كلمات الأغاني ونؤمن بأن الموسيقى حياة الفنان، ولا نحفظ آية أو حديثا أو ندرك أيّا من معاني القرآن. فعلنا كلّ حرام، واختلقنا الأعذار والأسباب لجعله حلالا، ثمّ أسميناه اختلافا في الشخصية وحريّة تعبير كالكلام البذيء الّذي أصبحنا نسمعه بين الذّكور والإناث، الكبار والصّغار بكلّ اللغات، غدا لغة الإسلام وتحيّته الّتي لا تنبذه وترفض أن تحتويه. فإن كان الحرام هو ما يجعلنا تعساء، والحرام هو ما جعلناه حرّية؛ إذن، فخسارتنا للسعادة، تعاستنا الحالية، هي بسبب سعينا نحو حرّيتنا، فلمَ نلوم الجميع وكلّ شيء عدانا؟! الحزنُ حرّية شخصية رضينا به لأنفسنا، خسارةُ الجنّة حرّية شخصية اخترناها بأنفسنا، وحين نخسر الجنّة، فنحن لم ولن نفوز بشيء أبدا.

الأمر يُحزنني؛ لا أدري لماذا، لقد أنعم الله عليَّ بقلب كبير يتحوُّل أحيانا إلى لعنة. لا أكره شخصا حتّى وإن كنتُ لا أحتمل وجوده قربي، وأسامح دوما وإن كان الوجع لا ينتهي، وأهتم دوما، لا أرضى الضيق والضّياع لأيّ أحد، أيّما شخص كان؛ في زمن لا أحد يهتم فيه بغيره، لا الجار بجاره ولا الأخ بأخته. أنا سعيدة بامتلاكي قلبا كبيرا يهتم، لكن في كثير من الأحيان، الاهتمام مؤلم، الاهتمام يقتل، لكن هل يستحق؟ ذاك أمر آخر.

هذه أول مرّة سأخرج فيها منذ سبع سنوات؛ قد يظنّ البعض أنّ الفترة طويلة بالنّسبة لشخصٍ قضاها في غرفة من أربعة جدران، لكنَّ الوقت يمر بسرعة. هل أنا خائفة؟ نعم، أنا مرعوبة، قلبي ينبض بسرعة،

أشعر بالغثيان والدوار. كلّ عضلة في جسدي تطلب منّي العودة لغرفتي الهادئة النّظيفة والمعطّرة، أشعرُ بارتياب شّديد من أنَّ هناك شيء ما سيّئا سيحدث، بعضُ الخوف من نظراتهم إلي، أشعر بها تحدّق بي وكأنّها تأكلني حيّة، خوف من أن أرى العالم قد أصبح أسوأ ممّا كان عليه منذ أن انعزلت عنه وتركته متّسخا قذرا لا يرحم، وبالفعل قد فعل.

لم أكن لأخرج لولا تلك الرّسالة الّتي وصلت لسراج الدّين تحثّه على حضوره لخُطبة الجمعة في المدينة الموافقة لهذا اليوم؛ أردت أن أعرف السّبب، وها أنا. لكن أن يكون الإمام يُلقي درسه والشّباب خارجا يلعبون بأحجار الدومينو يرفعون أصواتهم على أصوات موسيقاهم الصادحة من هواتفهم، أن يكون الإمام يخطب خطبته والبنات خارجا يتجوّلن بكعوب عالية لا تعلو على وقعها إلّا ضحكاتهن السافرة وخلفهن ذكور لا يقدرون على غضّ البصر، أن يكون الإمام يناجي ربّه والنسوة حولي يتحدّثن عن البرامج التلفزيونية، إحداهن تصلّي دون جوارب وأخرى بسروال ضيّق وقميص مفصّل لمفاتنها بحجاب كسنم الجمل، أن يكون كلّ ذلك وأكثر، جعلت العالم أكثر إخافة بالنّسبة لي وأكثر ظلاما، فبالنّسبة لي، مسلمٌ لا يخاف الله، تعني أنّه ميت الضمير لا يخافُ القتل ولا الظّلم، ولا يمنعه منهما سوى خوفه من الإعدام أو السجن، وبما أنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهم ماتت قلوبهم لدرجة أنّ الإمام ينادي في أحبّ الأيّام إلى الله وهم صمّ يكم وعمي، فلا شيء سيمنعهم من الظلم إن كانت لهم مناصب أو وسائط تحميهم من القانون أو تجعلهم فوقه.

أتعرفون لماذا أحبّ المساجد؟ لأنّني ما إن أتوضّأ حتّى أحس بالطهارة، نظافة جسمي من كلّ قذارة قد تحملها روحي، وما أن أخطو أوّل خطوة برجلي اليمنى داخل بيت الله، حتّى تتخلّ عنّي كلّ مشاكلي وأحزاني، وتبقى خلف عتبة الباب لا يمكنها الدّخول والتشبثّ بي، كأنّ هناك حاجزا يُحرّم عليها من ملاحقتي هناك، حتّى إن كنت أعرف أنّها ستكون بانتظاري فور ما أن أخطو خارجا. ما دمت داخل بيت الله، فلا شيء منها يهمّني، لا أهاب منها ولا أخاف الحياة، لا فرق بيني وبين من حاذاني، لأنّني في بيت ربّي وربها وربّهم أجمعين.

كانت خطبة الجمعة عن شابّ منح بيته لمتسكّع كان ينام في حيّه؛ كان هذا الشّاب هو الوحيد الّذي عامله كجار دون مأوى، بل كإنسان وليس كحيوان شريد؛ فوق كلّ هذا، وبفضل منحته، جمع هذا الشّاب المتشرّد المدعو عبد الغني بعائلته، فأصبح لديه بفضل الله بين ليلة وضحاها، منزلا وعائلة وعملا، زادت فرحة عبد الغني بحفيده من ابنه، وزفاف ابنته القريب الّتي كانت على برٍّ عالٍ بأبيها فرفضت كلّ خاطبٍ طرق باب الحلال عليها إلى أن عاد إليها والدها، مع أنَّ هذا الشّاب خسر عائلته إلّا أنّه منح عائلة أخرى فرصة بالحياة؛ قارنَ الإمام بقيّة الشباب بهذا الشّاب الّذي تمكن من حفظ أصوله خلال زمن الفتن والأنانية، ثمّ قام بالدّعاء له ولعائلته بالفردوس الأعلى من غير حساب ولا سابق عذاب. لم يذكر اسم الشّاب، لكنّه كان واضحا وضوح الشمس، حتّى قدر بجنبي عرفت من هو، ورغم أنّه ما زال غريبا عنّي، إلّا أنّه دخل قلبي، بكلّ بساطة.

لست من النوع الّذي يحبّ الدوج والضجيج. عندما رأيتُ بعضهنَّ يتراكضن نحو المخرج كأنّهن هاربات من حريق جهنّم، ونحن بزمن النار فيه جنّة والجنّة نار. أحسست بالأسف لأخواتي؛ لا يعرفن راحة الجلوس وفوائد أذكار ما بعد الصّلاة، لا يعرفن أنَّ الملائكة تستغفر لهن لقعودهن بعد كلّ صلاة، مؤسف كيف تغيّر المسلمون والمسلمات مع أنَّ الإسلام بقيَ على حاله. كلامي هذا ليس تكبّرا أو تفاخرا- حاشا، لست أحسن من غيري ولا أظنّ بنفسي خيرا، فأنا نفسي أضعت صلاة الجمعة لسبع سنوات كاملة.

لاحظت قدر عدم رغبتي في الخروج من هناك، إلى العالم الخارجي. تمنيتُ لو يكون هناك بابٌ سريٌ يربط المسجد بغرفتي. كمسلمة، يجب عليَّ الابتسام حتّى وإن لم يرَ أحد ابتسامتي خلف نقابي، وتقبّل الأمر الواقع والتعايش معه واجبي إلى أن يحين أجلي، ولكن كما قلت، قلبي كبير ويهتم، والأكثر من ذلك، لا أشعر بالسّعادة خارجا على الإطلاق، أشعر بالسّعادة حين يكون النّاس نياما والهدوء مخيّما وأنا على بساط صلاتي أقاوم تعبي داعية الله في سجودي، أطلب منه ما أشاء وأشتكي إليه ما أشاء، هناك فقط أشعر بالسّعادة، لأنّني أحسّ بفرقتي، باختلافي، بنعمة الله عليّ في مناجاته، محمية بمن لا أقوى منه. فقط خلال ذلك الهدوء المظلم، أحس بالنّور داخلي.

# الفصل السابع

بينما كنت اليوم أعمل في الصالّة، رأيتُ فتاة صغيرة خارجها تقفز على رجل واحدة ذهابا وإيّابا؛ بدا الأمر تافها بالنّسبة لي، لكن بالنّسبة لها كانت تقوم بعمل خارق من نوع ما، تتحدّى نفسها لكم من الوقت تستطيع أن تبقى على تلك الحال وإلى أيّ مسافة، كأنّ القفز على رجل واحدة سينقذ حياتها أو يجعلها تثبت قوّتها. أحنّ لتلك البراءة، لتلك الأيّام البريئة، أيّام كانتِ الحياة أبسط، لا مشاكل عائليّة، لا هموم دنيويّة، لا ضغوط عمل ولا قلّة رزق، لا مسؤوليّة بثقل الجبال ولا خوفا من الغد، لا نعرف حتّى الموت. كلّ شيء كان أكثر بساطة وطولا. رؤيتها بتلك الطريقة جعلتني أشتاق لقدر، كانت أحيانا تقفز برجليها معا على الدَرَج صعودا، درجةً بدرجة، وكان الأمر يجعلها سعيدة جدًّا.

فكرتُ بأمرها، تحب مساعدة النّاس وتقوم به كجزء من طبيعتها، من جيناتها. أردتُ استغلال ذلك لكسب بعض الوقت معها. قدر، حين أنطق اسمها أشعر بالسّعادة، وكلّما جعلتها تبتسم أشعر بسعادة أكبر، وليتها تعلم كم سأكون سعيدا لو تعتبرني أخاها الأكبر، لتقصدني وقتما تحتاج حديثا، لتقصدني وقتما تحتاج مالا، لتقصدني وقتما تحتاج مشورة، لتقصدني وقتما تحتاج أمنا. لا أدري ما هذا الشّعور، فأنا لم أشعر بهذا النّوع من الحبّ قبل ذلك، ولا أدري إن كان أحد قد فعل.

- السّلام عليكم، هل استدعيتني؟

- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته. نعم قدر لقد فعلت. أنا أحتاج مساعدتك

- في ماذا؟

- هل تذكرين تلك الرّسالة الّتي وصلتني؟

- نعم، من ذلك الرّجل الّذي تحدثوا عنه في خطبة الجمعة.

- هل كنت هناك؟!

- نعم، وأمّي كذلك.

- خرجت أمّك من المنزل؟!

- نعم، خصيصا لخطبة الجمعة تلك، فهي من قرأت لي الرّسالة. هل رددت عليه؟

- لا، ليس بعد.

- لماذا؟

- لا أدري، أنا أنتظر حتّى يكون لي شيء يستحق أن يقال.

- أنت غريب.

- لا مزيد من كلمة أحمق؟

- أحمق غريب، ماذا كنت تحتاج؟

- أريدك أن تضعي تلك الرسالة في إطار، أن تصنعي لها شيئا يحافظ عليها لأطول وقت ممكن.

- هل يمكنني أن أزيّنها؟

- نعم.

- ألونها؟

- نعم.

- أضع عليها قصاصات؟

- نعم.

- رشّها بالمسك؟

- يمكنك فعل أيّ شيء تريدينه، وأخذ الوقت الّذي تحتاجينه، طالما أنّ الكتابة ستبقى واضحة، وتُريني التّقدم الّذي تحرزينه؛ موافقة؟

- نعم، أعطني إياها. هل يمكنني أن أسأل شيئا في المقابل؟

- طبعا، ما هو؟

- لا أدري بعد، لكنّك مدين لي.

وبهذه الكلمات غادرت غرفتي؛ تركتني مذهولا، عاجزا عن الكلام، عاجزا عن التّفكير. ما الذي حصل للتو؟! هل هي حقا في السّابعة؟! هي بعمرٍ وبراءةِ وتصرفاتِ طفلة في السّابعة ولكن بعقلِ وذكاءِ بالغ؛ أشعر وكأنّني تعرّضت للاحتيال على يد طفلة. مهلا! هل فاقتني دهاء فتاةٌ في السّابعة للتّو؟! لا أدري إن كنت أريد أن أقبّلها فخرا، أو أُقبّل الحائط بجبهتي!

خلال اللّيالي الأولى كانت تجعلُ من الرّسالة تحفةً فنّيةً بغرفة والدها وبعدها تأتي لتطلب رأيي، ثمّ أتت بأدواتها وأصبحت تزيّنها في غرفتي على الأرضيّة جانب الباب مفتوحا. كنت أستمتع بمشاهدتها بينما أتظاهر بالمطالعة. مستلقٍ على سريري أختلس النّظرات لأراها، بكل جمالها وبراءتها تحدّث نفسها، تكلّم الغراء والورق والألوان. أبتسم حين تبتسم وأخاف حين تستعمل المقص. لم تكن لياليَ تمر بسرعة مثلما مرّت وهي معي، ولكنّ دائما أحس أنّ هناك خطبا ما، شيئا غير مكتملّ منّي، لا أدري إن كنتُ سأعرفه يوما أم أنّها طبيعة الإنسان بغير الكمال.

هل كنتم بأيّ من الأيّام تعيشون لحظةٍ سعيدة جدًّا لدرجةِ أنّكم أردتم أنْ تُجمّدوا تلك اللحظة لتعيشوها للأبد؟ مثلما كنت مع والدّي، أزعج أمّي مع والدي تارة ثمّ أحاول أن أرضيها تارة أخرى. مثلما أخذتهما لحمّامٍ معدني واستلقيا هناك لمدّة ساعتين لا يشعران سوى بالرّاحة، شعرت بالفخر لمقدرتي على توفير ذلك. مثلما نلت شهادة الباكالوريا وعانقني والدي على مرأى من الجيران الّذين ودّوا لو يتظاهروا بالحزن معك شفقة على أن يفرحوا معك صدقا. هذه اللّيالي مع قدر جعلتني أنسى مأساة وفاة والداي وأفكّر فقط بهما كأنّهما هناك في مكان ما، في المنزل الحقيقي، ينتظرانني، لنعيد خلق جميع الذكريات الجميلة ونعيشها مكرّرة للأبد.

كنت أعلم أنّها قدر ستكبر، وهذه اللحظات ستصبح مجرّد ذكريات، لذا كان أمامي خياران، إمّا أن أستمتع وآخذ منها أقصى ما أقدر على حمله بقلبي، أو أتفاداها كي لا تؤذيني ذكرياتها مستقبلا حين لا تكون هناك هي، ولأنَّ الموت يزور الناس فجأة، قررت أن أستمتع بها، ففي النهاية، هي حلال، وستصبح ذكريات حلال. قد تؤذيني، لكنّني لن أندم عليها أبدا. لحظاتي معها سحرية، تأخذني إلى مكان سريّ دون اسم، دون ذاكرة، دون واقع.

- ما رأيك؟

- هل انتهيت؟!

- نعم، إذن ما رأيك؟

- إنها رائعة!

- هل يمكنني أن أعلّقها؟

- نعم، يمكنك ذلك.

- هل يمكنني أن أريها لأمّي أولا؟

- طبعا!

غلب عليها الهدوء لبرهة، ورفضت أن تغادر غرفتي. بقيت هناك تعبث بالحاجيات وكأنّها تتجنّب موضوعا ما. تركتها على حالها ولم أمانع وجودها حتّى سمعت نبرة صوت خافتة منها، تسألني مرتعشة:

- هل سترحل قريبا؟

- لا أنوي ذلك قريبا، لماذا؟ هل تريدينني أن أرحل؟

- لا، أريدك أن تبقى للأبد!

- لماذا؟

- لأنّك تُسعد الجميع.

- حقًّا؟

- نعم، هذا ما قالته أمّي.

- وأنتِ؟

احمرّ وجهها، وشعرْتُ بها تبحث عن جوابٍ داخلها يجعلني أبقى ولكن يبقيها عنيدة وبنفس طباعها الكريمة.

- طالما هناك حلوى، يمكنك أن تبقى!

أحببت تلك البراءة، أحببت تلك الفتاة الصغيرة، أحبّك في الله قدر.

*** *** *** *** *** *** ***

يبدو أنَّ سراج الدّين قد نجح في أخذ ابنتي منّي لعدة ليال، أحس بالغيرة. عليَّ أن أعترف بأنّ غرفتي موحشةٌ دونها. تستمعُ لقراءتي وتحاول أن تقرأ مكاني، تحفظُ القرآن بتلاوتي لها، تنامُ في حضني وتقبّلني على حين غرّة. تجرّب أحذيتي وتتعثّر بها، تستلقي منتصف الغرفة تتأمّل الثُّرَيّا فوقها بينما أستمع بمراقبها متسائلة عمّا يجول بخيالها، وفوق كلّ ذلك، هي مغناطيس لوالديَّ، في لحظة تكون غرفتي هادئة ومسالمة، وفي لحظة أخرى تتحوّل إلى ساحة معركة وسائد. قدر دائما في صفّ جدتها وأنا في صفّ جدّها رغم أنّنا نخسر معظم الأوقات. أحيانا أتمنّى لو أستطيع العيش في تلك اللحظات للأبد كي لا أواجه المستقبل، لا أواجه الموت حين يأخذُ منّي ما أخذه من سراج الدّين، كي لا تكبر قدر وتبتعد عنّي.

أعلم أنَّ الحياة لا توجد فيها خسارةٌ حقيقيةٌ لإنسان، الخسارة الحقيقية لإنسان تحبّه هي حين يكون أحدكما في الجنّة والآخر في النّار، أو حين يكون كلاكما على بعد مراتب من الجحيم بعد أن عشتما حياة لا نصيحة فيها ولا صلاة، الخسارة الحقيقيّة هي خسارة الجنّة، لكن رغم ذلك، يبقى الألم غير محدود في الحياة الدنيا، حين تضطر لعيش بقيّة حياتك دون شخص كان في معظمها، والذّكريات هي أسوأ ما في الأمر. حين أتذكّر هادم اللذّات، وأدرك أنَّ الموت حق، أتمنى إمّا أن نموت كلّنا معا، أو أموت أنا قبل الجميع، لكنَّ هذه ستكون أمنية أنانية بحق عائلتي، أليس كذلك؟!

منذ أن خرجتُ تلك الجمعة وأبي متحمّس وسعيد. يبدو أنّه يريدني أن أخرج من جديد، أن أخرج أكثر. لم تقنعه حقيقة أنّني خرجت بسبب خطبة الجمعة فقط. الحقيقة هي أنّ الواقع ليس مكانا لطيفا على الإطلاق. دعونا لا ننكر الحقيقة، لو كانت لديك غرفة جميلة وهادئة على ذوق ألوانك ومسامعك، مليئة بالكتب الّتي تصلك إلى باب غرفتك مع أكلك، هل كنت لتغادرها يوما؟

- أمّي...!

(دخلت عليّ قدر ورمت بنفسها في حضني)

- هل كنت عند سراج الدّين؟

- نعم.

- إنْ كنت ستتركينني وحدي كلّ هذا الوقت، فربّما يجب عليَّ إحضار قطّة لتؤنّسني.

- هل بإمكاننا إحضار قطّة؟! (سألتني بنظرة تعجّب على وجهها)

- كنت أمزح فقط، لماذا؟! هل تريدين قطّة؟!

- لا أمانع الحصول على واحدة.

فكّرت بالأمر، قدر تلعب مع القطّة على أرض غرفتي، تحمّمها وتحدّثها؛ منظر يستحق الرؤية، لا أدري لمَ لمْ يخطر ببالي قبلا!

- القطة ستحتاج للاهتمام والرعاية، للاستحمام، للأكل، للشرب...

- أستطيع فعل ذلك.

- ومن أين سنحضر قطّة؟

- أنت أقنعي جدّي وجدّتي وأنا سأتدبّر أمر القطّة.

ضحكتُ، تعجبني حين تتكلّم بكلّ نضج ومسؤولية، تجعلني أشعر بالأمن عليها.

- حبيبتي، غدا صباحا سيأخذنا جدّك إلى الطبيبة لمعاينة جدّتك، هل تذهبين معنا؟

- هل لديَّ خيار آخر؟

- يمكنك الذهاب للصّالة مع سراج الدّين والبقاء هناك حتّى نعود.

- في الصّالة؟! مع كلّ أولئك الشّباب المتعرّقين والرّائحة والضّجيج؟

- صحيح، لكن سراج الدّين غيَّرَ الأمور قليلا، قام ببناء حجرة هناك من الزّجاج العاكس المانع للصّوت، أين يمكنك البقاء، تستطيعين رؤية الجميع ولا يستطيع أحد رؤيتك.

- هل سيكون سراج الدّين هناك معي؟

- نعم، ليقرأ الكتب إن لم يكن يتمرّن أو يساعد أحد؛ لكنّنا نثق فيه الآن، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذا ماذا تختارين؟ رائحة العرق أو رائحة مكتب الطبيب؟

- العرق!

أجابت دون انتظار. ضحكتُ وقلت:

- نعم، أنا كنت لأفضّل ذلك أيضا، لكنَّ أمّي لن تذهب دون أن نرغمها، لذا عليَّ الذّهاب!

- كيف ستذهبون؟

- الحافلة.

- لكنّك تكرهين ذلك.

- ليس لديَّ خيار آخر.

- بل يوجد.

- ما هو؟! (سألتُ متعجّبة)

- سيّارة.

- لكنّنا لا نملك سيّارة، ولا توجد سيّارات أجرة في قريتنا.

- جدّي يعرف من يستطيع أن يعيره سيّارة.

- لكن جدّك لا يملك رخصة سياقة!

- سراج يملكها.

- كيف تعرفين؟

- رأيتها.

- إذن أنت تقترحين أن يعمل جدي في الصّالة معك بينما يُوصلني سراج الدّين أنا وأمّي؟

- إذا وافق جدّي على الفكرة فسأذهب أنا أيضا.

ابتسمتُ بمكرٍ وسألتها:

- لماذا تريدين الذهاب فجأة معنا؟ هل لأنّ سراج الدّين ذاهب؟

- لا، لا، لا؛ إنّه أحمق! (أجابت بحزم وخرجت راكضة لتُعْلِم جدّها بالخطّة)

أعلمتْ أبي، فوافق؛ أعلم أبي سراج الدّين، فوافق أيضا. لا أدري إن كانت أفكارها مجرّد عفويّة عشوائيّة، أم أنّها خططٌ تدبّرها بإحكام وذكاء، مهما كانت، فلقد أعطتنا أجمل رحلة، أجمل ليلة، وكأنّها الفرار من الواقع نفسه.

# الفصل الثامن

تلقّيتُ يومَ عطلةٍ لأُوصل زوجةَ عبد الله وابنته لأحدى الطبيبات في المدينة؛ كانت رحلة الذّهاب هادئة، فقدر نامت في حضن أمّها وكذلك فعلت زوجة عمّي، في طريق العودة توقّفتُ أمام محلٍّ للمثلّجات وسألتهنَّ إن كنَّ يحتجن شيئا.

- مثلّجات (أجابت زوجة عمّي)

- نعم، مثلّجات (أضافت ابنته بنبرة استحياء خافتة)

- قطّة (بالطبع، قدر)

بعد هنيهة من الصمت القاطع الّذي عمّ على جميع من كان داخل السيارة، أكملت قدر جوابها برويّة:

- ومثلّجات...

حاولت أمّها أن تكتم ضحكتها بكلتا يديها على فمها، أنا من ناحية أخرى، لست بارعا في الكتمان. قدر، من جهة أخرى، لم يرفّ لها جفن، كانت جادّة تماما. انطلقنا من جديد بعد أن اشترينا كميّة هائلة من المثلّجات. حزِنتْ قدر لعدم قدرتنا على حفظ المثلّجات جامدةً لتأخذ منها لجدّها، فوَعَدَتها أمّها أنّها ستصنع له منها بالبيت، ثمّ توقّفنا جنب إحدى الطّرق الفارغة المخضرَّة بالحشيش من كلّ صوب وناحية. ترجّلت من السيارة وجلستُ على إحدى الصّخور كيْ أتركهن في السّيارة على راحتهنّ يستمتِعنَ بالمثلجات باردة، لكن قدر أتت بجنبي وأحضرت لي بعض من مثلّجاتها داخل كأسها البنفسجي المفضّل الّذي تشرب فيه المياه وتأخذه معها إلى كلّ مكان. رفعتْ نقابها من على وجهها حين تأكّدت من عدم وجود غرباء عنها بالجوار وبدأت تأكل معي تارة، وتقفز بين الصّخور تارة أخرى، كانت سعيدة، وكنت أسعد بساعدتها قربي. كانت في حريّة مطلقة، بكلّ قامتها القصيرة ونقابها المتدلّي خلفها، كانت أجمل كائن ذات عيون زرقاء ورثتها عن أمّها. لا عمّي ولا زوجته كانت لهما مثل تلك العيون العجيبة، ككون في حدقة عين، بها حلقة صفراء، شمسها، وحلقة خضراء، أرضها، والسماء بزرقتها تغلب عليهما وتستدير. كانت عائلةً غامضة تخفي الكثير. كانت عائلة غريبة، لكنَّ الغرابة في آخر الزمان أجمل.

ضاع منّي الوقت ونسيتُ العالم. لم أعد أرى في الدنيا سواها، تقفزُ أمامي بسعادة بسيطة لا تحتاج مالا ولا لباسا عاريا، ولم أستفق من لوحة الفنّ تلك حتّى تفاجأتُ بأمّها، أنابيس، تسألني بصوت خافت متقطع من خلفي:

- أخي، هل تمانع إن بقينا هنا لبعض الوقت؟

- طبعا لا أختيّ، خذن وقتكن.

قمت من مكاني وعدتُ إلى السيارة مع زوجةِ عمّي نراقبهما من بعيد، الأمّ وابنتها يدًا بيد، تتظاهران بأّن الأرض حمم بركانيّة، ومن يسقط من فوق الصخور ويلامسها أوّلا، يخسر. تارة يخطفان من عبق الزّهور الصّيفية وتارة يتمددان على البساط الأخضر مشيرتان للغيوم البيضاء كي يعطياها أشكالا. لا أدري كم عمر أنابيس، لكن لابدّ أنَّ قدر تُعيد لها صباها مثلما تُعيد لي براءتي وطفولتي.

- أتمنّى ألّا يزعجك الأمر، فأنابيس لا تخرج من المنزل أبدا بسبب رُهابها من النّاس، ومكانٌ خالٍ مثل هذا يعتبر نعيما بالنسبة لها، فهي لم تخرج مع قدر قطّ إلّا بالجمعة الماضية.

- لا بأس خالتي، لا يزعجني ذلك إطلاقا. هذا يفسّر بياض بشرة قدر.

- لا، البياض وراثي من أمّها وليس بسبب قلّة الخروج، وكذلك زرقه عينيها، لكن لا أدري من أين ورثتاه.

- أليس لكم في العائلة أصحاب عيون زرقاء؟

- ليس على حدّ علمي، لا.

- وأب قدر؟!

- ليس لها أب.

قرأتُ من نبرة صوتها المتردّد أنَّ الأمر لا حديث فيه. صمتُّ لبُرهة ثم عدت لسؤالها مخافة أن تعتقد أنّني أظنّ سوءا بابنتها:

- ماذا قالت لك الطّبيبة؟

- قالت إنّه تعبٌ وضغوط حياة.

- إذًا عليك تغيير البيئة والهواء حولك.

- كيف؟

- اذهبي عند عائلتك واقضي بضعة أيّام هناك.

- لا أستطيع، عائلتي قطعت علاقتها بنا، لكنّنا ما زلنا نحاول وصل رحمهم ليومنا هذا.

عدت ببصري إلى قدر وأمّها، ومن العدم واتتني فكرة تردّدت قليلا في طرحها.

- إذًا قدر تحتاج إلى قطّة؟

ضحكتْ زوجةُ عمّي وأومأت برأسها.

- وأنتِ بحاجة لتغيير الجو قليلا، وعمّي يحتاج إلى راحة كثيرة، فماذا تحتاج ابنة عمّي؟

فكرتْ قليلا ثمّ أجابت بنبرة طفوليّة سعيدة:

- البحر! إنّها تُريد رؤية البحر! لكنّها لا تُريد ذلك استجماما ولا زحاما ولا دوجا. تُريد فقط البحر، دون السيارات المتزاحمة والشجارات المتواصلة والأنظار الدائمة، فقط البحر بموجه وزبده وتسبيحه.

أعدت التفكير قليلا في الفكرة الّتي جاءت رأسي ثمّ سألتُها:

- عمّتي، هل تحبّين الأعراس؟!

وهكذا تمّ الأمر. تركتُ خالتي تُقنع عبد الله بالفكرة. كان صعبَ المراس ليمضي معنا بهذه الخطّة لأنّها كانت تعني تركَ المنزل فارغا وغلقَ الصّالة لأسابيع عديدة. الفكرة هيَ أن نذهب لعبد الغني، منزلي

القديم. نبقى هناك نحضِّر لعُرس ابنته ونحضُره ثمّ نعود هنا ونستأنف العمل، لكن ممّا يبدو، كان لعمّتي طرقُها الخاصة معه، لأنّها لم تقنعه بالفكرة فقط، بل جعلته متحمسا لها أكثر منّا جميعا؛ يا للنسوة!

- ما علاقة هذا بقطّتي؟ (سألتني قدر)

- كان عمّي عبد الغني يُطعم الكثير من القطط في الحي، وهو بلا شكّ ما يزال يفعل ذلك؛ ستختارين أجمل قطّة تُعجبك لنحضرها معنا.

بسبست نحوي بخطواتٍ سريعةٍ وقفزت على سريري. استلقت جنبي، ووضعت بشرة وجهها على يدي، كنسمة هواء لامستني.

- هل حقّا سنزور البحر؟

- نعم، هل تحبّينه؟

- لا أدري، فأنا لم أره يوما، ولكن أمّي تحبّه كثيرا وتتحدث عنه دوما.

- هو جميل، هادئ رغم هدير أمواجه، يجعلك تحسّين أنَّ هناك معنى للحياة، مغزى لا يفهمه إلّا زوّاره الّذين يؤمنون بأنّه لم يُخلق لحفلات المصطافين الصيفيّة ورومنسيّات الشباب الوهميّة خلف صخور شاطئه، يدنّسونها بأقبح الفعل. البحر يزيد على قلبك حملا من نوع ما، كأنّه يحاول أن يقول لك شيئا ما، ذاك الهدوء المطلق مقابل ماءه الممتد إلى أطراف السّماء يجعلك تشعرين بأنَّ هناك شيئا أكبر منّا جميعا، ينادينا...

- الله؟

- نوعا ما، نعم...أنت ذكية!

- لا تطريني، أنت ما تزال تدين لي بالمناسبة!

- أعلم، أعلم، أنا لن أهرب!

- أمّي تصف البحر كبئر لا قاع له، إذا رميت فيه سرّك فلا خوف عليك من قريب أن يجده، ولن ينبشه إلّا غريب عنك ربّما، كي يستمع إليه برحابة صدر ثمّ يعيده حيث وجده. أمّي تريد السباحة فيه ليس للاستجمام ولكن كي تكون وسطه وتغسل نفسها به، كما أنّها تحبّه ليلا.

- لماذا ليلا؟

- كي لا يكون هناك إنسان، ويكون هناك قمرٌ ونجوم وفضاء

- أعجبني ذوقها، ربّما سنزوره ليلا، ما رأيك؟

- وهل كنت مستلقية معك كلّ هذا الوقت أحدّثك لأنّني أحبّك؟! طبعا سنزوره ليلا، أمّي تحبّه ليلا وأنا أحبّ أمّي!

- ألا تحبّينني؟!

- يا لوقاحتك!

لا عذر لي هناك، لقد نالت منّي.

*** *** *** *** *** *** ***

لم أرغب بالذّهاب في البداية. مقابلةُ أناس جدد لم تكن ميزتي الفضلى، ولكنّهم وعدوني برؤية البحر ليلا، وخروجي سيسعد والدي أكثر أيضا. أكاد لا أصدّق أنّني سأكون على شاطئ فارغ من النّاس، طاهر من قماماتهم ومخلّفاتهم، سأرى النّجوم تنعكس عليه كسماء ليلية مضاعفة، كون كلّه يحيط بي، سأرى قدرة الخالق في خلقه، وأُمضي كلّ ليلتي هناك، أخيّم على ضوء القمر، ثمّ نقودُ كلّ الصباح إلى بيته القديم.

الليلة الّتي عُدنا فيها من المدينة، نامت قدر لأوّل مرّة في حضن سراج الدّين دون قرآن، الليل كلّه. نامت على صوته يروي لها قصص عن المغامرات بحريّة، يحدّثها عن رحلات ابن جبير وابن بطوطة، يحكي لها عن ذكرياته المضحكة مع والديه وعن جاره عبد الغني وعائلته الكبيرة، كنت أستطيع سماع صوت لعبها وضحكها من غرفتي، وكم بكيتُ بشدّة تلك الليلة، لوحدتي دونها، لوحدتها دون حنان الوالد وأمنه، لعدم قدرتي على عيش تلك اللحظات من الحماس لأتفه الأسباب مع زوجي وأطفالي، نعيد ذكريات الماضي ونرسم ذكرياتٍ جديدة للمستقبل غير البعيد بنفس الوقت، بكيت لنفسي ولها، بكيت لأنّني لا أستطع تقديم تلك الحقوق لها، لم أستطع منحها تلك السّعادة، وهذا الشعور يذبحني، فسعادةُ من حلالٌ حبُّه هي واجبنا.

اتّفقتُ أنا ووالدتي اليوم التالي على أن ندخل للمطبخ سويا ونُعدّ بعض الحلويات، بما أنّنا سنكون ضُيوفا لعائلة عبد الغني، وبعض المأكولات الخفيفة للطريق أيضا ولليلتي السّحرية على شاطئ البحر. ظننتُ أنّني بعد كلّ هذا الوقت من الغياب عن ساحة المطبخ، سأشتاق إليه، إنَّ بعض الظنّ إثم حقًّا، لقد كنت مخطئة، بعد اثنتي عشرة ساعة في المطبخ، تأكدتُّ فعلا أنَّ بعض الأشياء أجملُ فقط من بعيد؛ مهما خرجت بأبهى حلّة أو أتتْ بأجمل رائحة، يبقى جمالها من بعيد فقط، عن مسافة، لأنَّ كلّ شيء لديه جانب مظلم في هذه الدنيا، وفي وقتنا، الجانب المظلم أكبر من غيره.

بعد صلاة العشاء، كنت أنا وقدر جنب السّيّارة مع سراج الدّين ننتظر أمّي أن تتأكّد، من جديد ومجدّدا، أنَّ كلّ شيء على ما يرام داخل المنزل، الغاز والثلاجة والأنوار، كل شيء مغلق ومحفوظ؛ بينما أبي تمشّى مع صاحب السّيّارة وصديقه القديم عودة لمنزله. كنتُ واقفة وكلّ عضلاتي تهتز خوفا، وأحمد لله على نقابي وإلّا لظهر وجلي يهتز بي كالرمل على الطبال، وخلفي سراج الدّين متّكئ على غطاء السّيّارة في سكون يراقب قدر الّتي كادت تقفز في مكانها.

- هل تريدين الذهاب إلى الحمّام قبل أن ننطلق دون توقف إلى البحر؟ (سألها سراج الدّين)

- كيف عرفت؟! (توقّفت عن الحركة وسألتْه محتارة)

- حين يبدأ الإنسان بالرّقص من غير سبب ولا موسيقى، يكون هناك دوما شيء مكبوت.

كان يقصد بالرّقص حركات رجليها وهي تنط، لكنّ معني تلك العبارة كانت أعمق بكثير، غاصت عميقا في نفسي وستبقى هناك للأبد.

- عزيزتي، اذهبي قبل أن ننطلق.

- حاضر أمّي.

انطلقتْ راكضة داخل المنزل وعيون سراج الدّين لم تفارقها، موجّهة نحو باب المدخل منتظرة أن تعود، وما أن لاح نقابها الأسود الصّغير حتّى عادت ابتسامته من جديد، كان حقًّا يحبّها.

آراؤنا تختلف حين يتعلّق الأمر بالسّفر؛ بعضُنا يحبّ رؤية أماكن جديدة، أناس أخرى، خلق ذكريات عديدة. بالنّسبة لي، لم يتعلّق الأمر بذلك أبدا، أنا أحبّ الطّرقات، تلك السبل الطّويلة الّتي نَمضي فيها دون توقّف، طويلة لدرجة أنّك بين اللحظة والأخرى تنسى أنَّ لك وجهة، وتشعر أنّك تنتمي للطريق، أنّك مسافر دائم، مجرّد عابر سبيل، وهذه هي الحقيقة، فنحن كلّنا مجرّد عابري سبيل مثلما قال النبي عليه الصّلاة والسّلام، عن ابن عمر رضي الله عنهما:

"أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي وقال: (كن في الدّنيا كأنّك غريب، أو عابر سبيل)"

إن كان قلبك معلّقًا بالدّنيا، فستنسى الطّريق، تنسى أنّك مسافر، كلّ تفكيرك يصبُّ في الوجهة فقط، وما أن تصل لوجهة حتّى تحدد غيرها ظننت أنّ بها سعادتك، وتمضي نحوها إلى أن يقطعَ عليك الموت يوما ما الطّريق وأنت بالمنتصف.

خرجنا من القرية، ثمّ من المدينة، واندثرت أنوارها خلفنا لتنبثق بعدها أنوار السّماء. متى رفع فيها أحدكم نظره للسّماء آخر مرّة دون سبب، دون طائرة في الأفق، دون شهاب يلقي عليه أمانيه بدعة أو قمر يريد منه صورة؟ فقط دون سبب؟

ليلة كثيرة النّجوم، ورغم الفضاء الشاسع حولها الّي جعلها تبدو قليلة، إلّا أنَّها برزت بنورها على ظلمته وما كانت لتبدو نادرة وجميلة دونه. \كرتني بالقرآن الكريم حين ذكر فيه الله سبحانه وتعالى عدّة مرّات عن القلّةً ممّن يتَّبعون الهُدى، والكثير ممّن يتَّبعون الهَوى الّذين يريدون بالقلّة سوءا وضلالا، ومن يتوكّل على الله ويصبر على كتابه وسنّة رسوله، يفوز فوزا عظيما.

لم أستطع أن أزيح نظري عن النّافذة، لم يكن هناك بشر ولا دوج، فقط هدوء الطّبيعة ومعجزات الخالق فيها. أحسست بالصِّغر، الصِّغر اللامتناهي. صدقا، من أنا؟! من بين كلّ تلك المجرّات، هناك مجرّتنا، من بين كلّ تلك الكواكب، هناك كوكبنا، من بين كلّ الطّرقات، هناك طريقنا، من بين كلّ السّيّارات، هناك سيّارتنا، من بين كلّ البشر، هناك أنا...لو لم أكن مسلمةٌ سليمة القلب والمظهر، عفيفة مختلفة في زمن كثر فيه التشابه، لأحسستُ بالضّياع، بانعدام الهدف، لشعرت بأنّني لا شيء ولا أحد.

قدر في الجهة الشّمال من السّيّارة، تكاد تأكل النافذة بوجهها وكلتا يديها، ترى العالم لأوّل مرّة. أمّي من جهة أخرى، علقتْ في المنتصف تستمع لحديث أبي مع سراج الدّين عن المعدّات الرّياضية وحمل الأثقال. لا تفهموني خطأ، أنا من هوّاة المؤمنين الأقوياء، فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضّعيف، وصحيحٌ أنَّ سراج الدّين قد اكتسب وزنا وعضلاتٍ جعلته غير سراج الدّين الهزيل الّذي دخل بيتنا أوّل مرّة، لكنَّ الحديث عن أيّ نوع من الرّياضات هو مُمل بالنّسبة لي. صِدقًا، لو لم أكن أملك القدرة على الهجرة بمخيّلتي ونسيان ما يدور حولي، ووجدت نفسي عالقة وسط هذا الحوار، لفتحتُ باب السّيّارة وقفزت دون التفكير مرتين.

البحر ليلا، أوّل مرّة في حياتي أزور الشاطئ ليلا، كان الأمر ساحرا، أزاح عنّي كلّ مخاوفي. لا ضوء فيه عدا نور القمر الّذي نثر حبيباته على سطحه، لا ضجيج سوى هدير أمواجه الّتي تطرب الآذان تسبيحا في عظمة خالقه، لا ذنوب من خلقٍ أمام الخالق وعباده، لا بقايا نفايات تطفو على مياهه، لا نسوة عاريات فارّات من حرّ الصّيف الموسمي إلى حرّ جهنّم الأبدي، لا شباب يتباهون بحمل الأثقال وهم عاجزون عن حمل أعينهم على غضّ البصر، لا زنا تحت جذوع الشجر ولا بين صخور الشاطئ. فقط أنا وعائلتي بضمير مطمئن تحت أنظار الخالق.

انبسطت أمّي فوق الرّمال تسْعدُ كلّما دغدغ الموج قدميها، وأبي جنبها يضحكها ويسلّيها. هو يرشُّ الماء على وجهها وهي تحاول دفنه تحت الرّمال، بينما توغّلت أنا وقدر أكثر داخل البحر رغم برودته، فلم أكن لأضيّع مثل هذه الفرصة وسأستمتع بكلّ قطرة منها وبكلّ لحظة حتّى نودّعه صباحا. لم أكن أمًّا، لم أكن مُغتصَبَة، لم أكن خائفة، لم أكن من أنا حقيقة، كنتُ فقط صبيَّة بريئة تلعب مع صبيَّةً أخرى، نداعب بعضنا بالماء ونتحدى أنفسنا بمن يستطيع حبس أنفاسه لمدّة أطول، ثمّ نضحكُ تفاهة لحين يتسلّل الماءُ إلى أفواهنا ونبتلعه مالحا.

كنتُ سعيدةً حدّ البكاء، ذرفتُ دموعَ فرحٍ سترتها أمواج البحر من أجلي وأَخَذَتْها سرّا لن يقدر مِن غير القادر أن يكتشفه أحد. كنتُ سعيدة برؤية والداي دون همّ عليّ، فرحين كزوجين بأوّل الطريق. كنتُ سعيدة فوق وصفي، فوق ما أستطيع اقتباسه من صفحات كتبي، أنا وأبي وأمّي وقدر والبحر والرّمال والقمر والنّجوم والله فوقنا. كنتُ في جنّة، ليس بها مستقبل ولا مشيب، لا عيب ولا نقص، راحة البال والهناء، الحمد لله رب العالمين.

- لا تبتعدا كثيرا، فقدر لا تعرف السّباحة وأنت فضيعة فيها، بكلّ صراحة. (صاح أبي)

- نحن في نفس الفريق، هل تذكر؟ (قلت له)

- وأنت تعرف السّباحة؟ (سألته أمّي ساخرة)

- أفضل منك!

- هل تريد أن نتأكد من ذلك؟

- هل تقصدين كتحدّ؟!

- نعم!

- هل أنت مجنونة! المياه متجمدة هناك!

- أنابيس، كيف حال المياه؟! (سألتني أمّي)

- رائعة (أجبتها فرحة)

- نفس الفريق، ها؟! هكذا؟! (صاح بي أبي)

- لا أستطيع الكذب، آسفة!

- رائعة، رائعة! (أضافت قدر)

- ماذا؟ هل أنت خائف من الخسارة؟ أم أنّك خائف من الغرق لأنّك لا تعرف السّباحة أصلا؟

- حسنا، لنقم بهذا! (طفح الكيل بأبي)

- أنابيس، ستكونين أنت وقدر الحكمان (قالت أمّي)

- حسنا (أجبتها)

- ستشهدين خسارة فادحة لأمّك لن يستطيع التاريخ محوها من هذا الشاطئ!

- كأنّنا لم نسمع هذا قبلا (قالت أمّي)

- لقد نالت منك هناك (قلت له)

- ذكريني بأن نناقش معنى كلمة فريق حين نعود للمنزل إن شاء الله...

- اللاعب يأخذ دواءه حين يَطلب منه ذلك زميله في الفريق!

- لكنَّ الدّواء كريه! (صاح)

- فريق، فريــق!

- لقد كان ذلك منذ أشهر عدّة، تجاوزي الأمر!

- لقد أفحمتك ابنتك، فلنرى ماذا ستفعل زوجتك، هل أنت مستعد؟!

- أنا عالق وسطكن ما بقي من عمري، مستعد وأمري لله!

# الفصل التاسع

تركتهم كعائلة أمام شاطئ البحر واختفيتُ وراء الصّخور أفكّرُ في عائلتي الخاصة؛ تركتهم براحتهن لنزع النّقاب، فهنّ بشرٌ أيضا، هنّ أيضا يحببن البحر ويحببن شعور ملامسة الماء لبشرتهن، هنّ أيضا لديهن هموم ومشاكلٌ ومآسي ومعارك يحاولن أن يتجاوزنها أحياء سالمين، فلم يحق للعاصين الاستمتاع بالبحر والبحر ملك لله، على عباده الّذين اختاروا قربه؟! لم ينظرون للمنقبات والملتحين بعين الحقد ويتطاولون عليهم بيد الظلم ويلمزونهم بلسان العيب فيزيدون جبلا على جبال أثقالهم، ويضيفون همّا على أكياس همومهم وكأنّهم لا يحسّون ولا يشعرون ولا يذرفون دمعا ولا ينزفون دماء؟! ألأنّهم مرآة الحقيقة ومن ينظر إليهم يرى انعكاس نفسه دون وهم الاختلاف ولا وجه النفاق؟ أم لأنّهم الوحيدين اللذين ما بقلبهم من إيمان يظهر على سحنتهم، ينعكس على مظهرهم وملابسهم ونور هالاتهم، دون الحاجة لادّعاء حسن النوايا والقسم بطيبة النفوس والتزيّن للظفر بالقلوب؟! أراهم كالزهر والورد وكلّ شيء جميل بالدنيا، يجذبون الأنظار من غير حاجة ولا غاية، يريدون قطفهم حقدا وغيرة.

كنت أفكر بعائلتي تارة، وتارة أخرج من غياهب جبّي على صوت قدر وهي تضحك فابتسم. لم أذهب للبحر يوما مع عائلتي، ولو فعلت، لما ذهبت صباحا وذهبت ليلا. كانت أمّها محقّة، الأمر ليس سيان، ليس هناك ضجة تقتل هدير الموج، ولا عائلات أخرى أو بشر غيرنا. كانت اللحظة تقتصر علينا فقط، وكأنّنا الوحيدون بالدنيا. لا عيون تراقبنا، لا نظرات تزدرينا وتحكم علينا باللهفة. لا قلق، لا غضب، لا ازدحام، والأفضل من كل هذا، كان هناك شعور لا يوصف، حين تبصر تلامس البحر مع السّماء والقمر ينير كليهما، نصفه بالأعلى ونصفه على الماء، تجدُ نفسك من غير حيلة سوى أن تشعر بالطمأنينة، النشوة والفرح، السلام والتسليم، كأنّنا في مكان يتوقف فيه الزّمان وتختفي منه الأحزان، يأخذها الموج بعيدا ولا يعيدها إلّا وأنت تاركٌ أمرها لله، قريبون منه، ومن بقربه يحزن؟!

شعرت بالسّعادة، بل وأكثر، شعرت بسعادة والداي وابتسمت لابتسامهما لي بقلبي، حتّى إنّي ذرفت بعض الدموع حين تذكرت كيف مات كلاهما في وقت آن، فإن كانت تلك دعوة صغيرة أجابها الله لأمّي، فكيف دعاؤها بالجنة لكلاهما؟ آملا أن كان لي من دعائها نصيب.

تركتهن كلّ الليل على راحتهن، ثمّ أتاني عبد الله ليؤنس وحدتي. لم يحيّيني كعادته، بل قال ضاحكا "لقد خسرت". لم أفهم قصده ولم أسأل لأنّني كنتُ مشغولا بمسح دموعي لإخفائها. بعدها تجولنا قليلا على مقربة منهن لكن دون أن نراهن، بينما هو يكتفي بأخذ نظرة خاطفة عليهن كلّ ما سنحت له الفرصة ليُطمئِن قلبه. لم نتحدث كثيرا، بل كنّا أكثر كالصبية، نختار الأحجار الجميلة ثمّ نقارنها فيما بعضها قبل أن نرميها في البحر لنرى من منّا يستطيع جعلها ترتد على سطحه بحسب عدد المرّات، ومع أنَّ الجو بارد لدرجة تقشعرّ لها الأبدان، إلّا أنَّ عبد الله عرض عليَّ تعليمي السباحة، وأنا وافقت. محقّة أنت يا قدر، أنا أحمق!

كان الأمر محرجا للغاية وهو لم يتهاون ولو للحظة بالضّحك على أخطائي. كملاحظة، مقولة "تمدّد على الماء وأرخ نفسك، ارفع رأسك، أرخ نفسك، لن تغرق" لا ينفع يا ناس، لا ينفع!

لا داعي لقول المزيد، لكن فلنقل أنّني كنت مسرورا لسروره، وسعيدا بتضحيته لوقته مع عائلته بمثل هذه اللحظات النّادرة لأجل مؤانسة وحدتي. بعد أن شربتُ الكثير من المياه المالحة، لا أدري غصبا أم طوعا لأنّني ممّا يبدو صخرة ما أن ترمى في الماء حتّى تغرق، وبعد أن استمتعنا بشروق الشّمس كفاية، وصلينا الضحى على هدير البحر، أكملنا الطريق.

نام جميع من بالسّيارة واضطررت لتغطية نوافذها بالملابس منعا لأشعّة الشّمس من الدّخول. قدر كانت آخر من نامت بسبب حماستها الزائدة عن المعتاد، فوضعت لها بعضا من القرآن على مسجّلة السيارة إلى أن نامت بالمقعد الخلفي الأوسط، رأسها على حوض أمّها وقدماها على حوض جدّتها. كانت تبدو كحيوان باندا ظريف بنقابها الأسود وكل ما بدا تحته من بشرتها البيضاء.

أفضل جزءٍ في مفاجأة شخص تحبّه في الله، هو أنّك تستطيع رؤية كميّة حبّه لك من تعابير وجهه لوحدها. أوقفتُ السّيّارة قرب منزلي القديم، ورأيتُ عبد الغني وأبناءَه يمسحون موائد مطعمهم خارجا على الرصيف، وينظّفونه استعدادًا لزحمة وقت الغداء. توقّف فجأة عن المسح ورفع بنظره إلى السّيّارة، ما أن تبيّن له وجود حرمة بها حتّى أدار رأسه خجلا واحتراما، وكذلك فعل أبناؤُه. أحببته، أحببتهم في الله، يمكنك أن تحبّ شخصا حبًّا كبيرا لأبسط وأصغر شيء يقوم به، كغضّ البصر.

لم يتكلم عبد الله ولا عائلته، احترموا موقفي في صمت وسكون، فهذا كان حيّي، وهذا كان بيتي، وهنا عاش أهلي ومات والدي. داخل تلك الجدران كان كلّ شيء على ما يرام، مهما كان من بخارجها يحاول إيذائي أو الترصّد بي، داخل تلك الجدران لم يكن هناك سوى الحبّ الّذي يمحو كلّ همّ وحزن وضائق، داخل تلك الجدران كان أمن يطهّرك من كلّ خوف وفزع، داخل تلك الجدران كنّا نضحك وإن اشتدّ بنا البلاء، داخلها كنّا ننعم تحت رحمة الله بطاعته. يقول الكثيرون أنّ أحكام الإسلام وشرائعه وأوامر الله فيه تضعُ المسلم في سجن مشدّد الحراسة، لكن لم يتجرّؤوا يوما على القوم بأنّ ذاك السّجن بيتٌ واسعٌ ملأه أمن وطمأنينة وراحة بال. ما أن تخرجَ منه حرّا حتّى تضيع، تختنق، تيأس، تحزن، تمرض، تخاف، تبكي ضيقة لأسباب لا تعرفها، تصرخ ألما من مشاعر نفسك لا تفهمها، وتختبئ من أناس أنت بسوء نفسك جذبتها. الإسلام لا يكون سجنا إلّا لمن لا يستطيع كبح نزواته ولا أهوائه، لمن يسهل اختراق عقله والتلاعب بأفكاره، ولا يكون بيت أمان إلّا لمن رضيَ واستبشر وتيقّن أنّ الحياة الحقّ لم تبدأ بعد.

تذكّرتُ كيف كنتُ آكل الفاصوليا السّاخنة على رصيف البيت شتاءً أمام نار الحطب نحتمي من غيث الله، نستمعُ لزخّاتها على أوتار هدوء الحيّ ليلا تتناغم مع نبض الطّبيعة، نستمتعُ برائحة التربة المبلّلة حتّى تُنهي والدتي غسل أطباق العشاء وتعود لغرفتها مع والدي، فندخل إلى الدّاخل وننام بالرواق إلى أن يحين موعد صلاة الفجر. لا أدري كيف تمرّ هذه الأوقات بسرعة دون أن نقدّر أهميتها ولا حجمها، ننشغل بأشياء صغيرة جدًّا تجعلنا نضيّعُ لحظاتٍ نتمنى الآن لو تعود وتدوم للأبد. لو لم أكن آنذاك منشغلا بالبرد، لاستمتعت أكثر بصدى قطرات الغيث في لحظة أعلم خلالها أنَّ كلا والداي داخل المنزل مرتاحين ودافئين، لو لم أكن منشغلا بالتّفكير في المستقبل، للاحظت عبد الغني وهو تائه عليه ملامح التّعب الّتي برزت على تّجاعيده المخفية تحت ستار لحيته السّوداء الغثيثة. لو لم أكن منشغلا بالتّفكير في حجك المتاعب، لسمعت صوت الأواني على يد أمّي رحمها الله تمسحها وتعيدها لمكانها، أو صوت سعال أبي رحمه الله، يبحث عن نظّاراته لتلاوة بعض القرآن قبل النوم. قد يبدو صوت الأواني أو السّعال ليسا بالشيء الهام، لكنّني سأفعل أيَّ شيء لأسمعهما من جديد ولو لمرّة أخيرة.

تذكّرتُ ما حصل داخل تلك الجدران، كيف كنّا نُسعدُ أنا أمّي بتدليلها كتعبير شكر لها على كلّ شيء، كيف كنّا نُزعجها قبل أن نُرضيها وكيفَ كنّا نُشعرها بالغيرة من كلّ امرأة قابلها والدي. داخل تلك الجدران، كان أبي المريض يبتسم كلّما يراني، وأمّي تحتضني كلّما خطوت داخل المنزل عائدا من يوم شاق طويل بعيون تُشرق فرحا لرؤيتي، كأنّني لم أكن ابنهم فقط، بل اكسير سعادتهم. الآن، أنا، لم يبقى لي سوى أن أفتح لهم أبواب الجنّة بدعائي وصلحي وصدقاتي عليهم، وسأكون عند حسن ظنّهم بإذن الله.

حملت نفسي على فتح باب السيارة قبل أنْ تسبقني دمعتي، وما أنْ برز رأسي حتّى توقّف عبد الغني عن العمل دون أن يراني، وقال بصوت واضح:

- رائحة سراج الدّين!

استدار ناحيتي لكنّه لم يتعرّف عليّ؛ ازداد وزني واصطلح جسمي ونمت لحيتي، فبقيَ يجول ببصره خلف السّيّارة ونحو كلّ اتّجاه، حتّى لاحظني أتمعن بالنظر إليه، فوضع بصره عليَّ إلى أن ابتسمت...

- سر...سـ...سراج؟ (قال محاولا حصر الدموع بحلقه)

ركض إليّ وعانقني بقوّة. حشرَ وجهه على صدري وانفجر بالبكاء. أخيرا، وجدتُ عذرا للبكاء. انطلق الحفيدُ ركضا داخل البيت ليخبرَ جميع من فيه، وتجمّع أبناؤه حولي يتناوبون عليَّ بالعناق. لم أُحبَّ يوما مثل هذه اللحظات العاطفية الغريبة، أفقد فيها توازني، ويحمر وجهي، أفقد السّيطرة على حركاتي وكلماتي، كأنّه قصفٌ عشوائي للمشاعر!

- سررت بحالك، كيف مقابلتك؟ (ألم أخبركم؟! شلل عاطفي!)

تراجعَ عبد الغني بضعَ خطواتٍ للخلف كي يتأمّل حالي، بينما أبناؤه يرحّبون بي، أمّا الجيران فلم يتغيّر حالهم، من كلّ نافذة وباب وشرفة، يمكنك أن سماع همساتهم.

- هذا سراج الدين!

- هذا سراج الدين؟!

- لا، ليس هو!

- بلى هو!

- مستحيلٌ أن يكون هو.

- لقد تغير، أصيح أوسم!

- يبدو غنيّا، ولديه سيّارته الخاصّة!

- سيّارة قديمة لا تساوي شيئا!

- لقد أصبح متديّنا سلفيّا.

- رقم السّيّارة من جهة الشّمال؟

- لا، الشّرق.

- السّيّارة عتيقة وليست قديمة، يعني قيمتها أكبر بالسوق.

- هناك عائلة داخلها.

- هناك طفلة صغيرة أيضا.

- لقد تزوّج!

- تزوّج ولم يدعُ عبد الغني لزفافه!

- تزوّج ولديه طفلة!

هيّا يا ناس! أنا لم أغب لسبع سنوات كي تكون لي قدر! أنا لم أغب حتّى لتسعة أشهر كي يكون لي رضيع! وأيضا، لم أكن وسيما قبل الآن؟!

*** *** *** *** *** *** ***

لا تعرفُ إنسانا حقّ المعرفة حتّى تعرف كيف يتعامل معه من يعرفونه أفضل منك، وممّا رأيته، عرفتُ حبّا لا تفيه الكلمات حقّه، رأيتُ احتراما ظننته قد انقرض بزمان المادّة والسيطرة، رأيتُ تقديرا أجرأ على أن أقول أنّني ما رأيت مثله خارج فصول رواياتي، رأيتُ ودّا يكفيهم أن يقفوا في وجه الرّصاص لأجله.

كنتُ على متن السّيّارة وقدر تعتصر حضني خوفا. كيف لها ألّا تكون وستضطر إلى لقاء كلّ هؤلاء النّاس الّذين تراهم؟! أنا خائفة بدوري من النسوة داخل البيت، من العُرس، من كلّ ما يحصل حولي. كنت أراقب سراج الدّين وأبتسمُ دون قصد منّي لتصرفاته الغريبة معهم، أنا جدّ متأكدة منْ أنّه قد قتل قواعد اللّغة العربيّة بكلامه، في مرحلة ما سمعتهُ يقول "سررت بحالك، كيف مقابلتك؟" لا شكّ من أنّه متوتر، لكنّه بالتّأكيد ليس نفس الإنسان الّذي رأيته أوّل مرّة. كان يبدو أبسط وأقوى، أكثر نورا بقميصه الأبيض ولحيته السّوداء، تبرزُ منها بعض الشعيرات البنيّة.

أطلّت النسوة من داخل منزل عبد الغني ليرَوه خلسة، لا أدري ما الّذي أخّرهن، فكلّ الجيران سبقنهن من كلّ فتحة يظهر منها وجه سراج الدّين. الآن فهمت الجزء المخصّص عن حيّه من الرّسالة الّتي وصلته، لم يقطع سكوننا سوى كلمات تمتم بها أبي:

"ما شاء الله، ما شاء الله"

همسَ سراج الدّين بضعَ كلمات في أذن عبد الغني ثمّ أشار لأبي بالنّزول، وأشار عبد الغني للنسوة من مدخل البيت نحونا. سلّم أبي عليهم ودخل المطعم معهم خلفهم سراج الدّين يتأمّل حال حيّه القديم. أتانا بعد لحظات طفل صغير يطلب منّا الدخول للمنزل، عرفته من الرسالة على أنّه حفيد عبد الغني. نزلت أمّي أولا، ثمّ جاء دوري أنا، وما أن حاولت حتّى تفاجأت بقدر من خلفي تشدّ على ذراعي بقوّة وتجذبني للداخل. تأمّلت ما لها، فبرزت لي عيونها محمرّة تبكي بصمت وتأبى الصراخ.

- ما بك عزيزتي؟! ماذا هناك؟

لم أسمع منها كلاما أستبينه سوى حديث نظراتها المطوّلة، تحاول أن تستجمع أنفاسها، لكنّ نشيج بكائها منعها. أشرت لأمّي بالدخول إلى المنزل مع الصبي، ثمّ أغلقتُ باب السّيّارة ونوافذها لأوقف العالم حولها عن الحركة. احتضنتها حتّى هدأت نبضات قلبها، ثمّ قبّلتُ عينيها محبّة وحنانا، وبعدها سألتها:

- ما الخطب قدر؟! أخبريني، أنا هنا لأجلك.

- لا أريد البقاء هنا، لنذهب!

- لكنّنا وصلنا للتو!

- لا أهتم، نادي جدّي وجدّتي وسراج الدّين ولنعد للمنزل!

- قدر...؟!

- أريد العودة للمنزل! (اغرورقت عيونها بالدموع من جديد)

لم يكن بجعبتي ما أقوله لها، لك يكن بحوزتي ردّ يعادل ثمن دموعها الغالية، يقيت هناك أتأمّل حالها في عجز تامّ، أريد تحقيق رغبتها لكن كيف نترك النّاس في حيرة ونحن ضيوف عندهم. كنتُ متعبة ولاحظت هي تعبي ولم تشأ أن تكون سببا فيها.

- أنا لم أطلب شيئا في حياتي، ولن أطلب أبدا بعد هذا، لكن...لنعد لمنزلنا أرجوك.

- قدر حبيبتي، هم أناس طيبون ولن يؤذوك. هل رأيت كيف رحّبوا بسراج الدّين وتجمّعوا حوله حبّا فيه؟

ما أنْ أنهيت عبارتي الأخيرة حتّى انفجر ما بكان بمكمنها واحتضنتني صارخة تبكي دموع العجز وأنا لم أكن أؤمن إلّا ببراءتها.

- سيأخذونه منّا! لن يعود معنا، سيأخذونه ولن يعود! لن نراه من جديد! لن يعود، سيأخذونه...!

انهارت عليّ تلك الكلمات، كما انهارت مدامعي لأجلها، لا أدري إن كانت فرحا أم حزنا، سخافة أم جدّا. كم تعلَّقتْ به، كم تعلقنا به جميعا! غريب كيف يمكن لشخص واحد أن يغيّر عالمك بأكمله، يغيّر منظورك للحياة ويجعلك تقوم بأشياء لم تكن لتظن أنّك قادر على فعلها، يحقّق لك أمنيات بسيطة ظننتها مستحيلة، يعيد لك ضحكة آمنت بمقتلها، وأملا مدفونا منذ زمن بعيد. قبل شهور قليلة كنت بين جدران غرفتي، لا أعرف العالم بقدر ما تعرفه ابنتي، خائفة على والدي بقدر خوفه عليّ، حزينة لأمّي بقدر حزنها عليّ، وها أنا، خارج غرفتي، من صلاة الجمعة إلى البحر ليلا إلى عرس غريب عنّي. ها هو والدي بكامل قامته تبدو عليه عافيته وصحّته، وها هي أمّي تتحدّث مع النسوة وتضحك بعد ليلة كاملة على شاطئ البحر، النّاس معادن حقّا!

- ولكنّه لن يبقى هنا يا قدر عزيزتي، لن يبقى!

- لا، سيبقى ولن يعود، سيتركنا، سيتركني! هم يحبّونه أكثر منّا، لن يدعوه يعود معنا! أرجوك أحضريه ولنعد إلى المنزل الآن، لا أريد البقاء أكثر، لن أطلب أيّ شيء آخر في حياتي، أرجوك أمّي!

فكَّرتُ قليلا بحلّ لها؛ مسحتُ دموعي من تحت نقابي ثمّ أرخيتها عن حضني بلطف. ترجّلت من السّيّارة وذهبتُ أمام باب المطعم حتّى لاحظني أبي فجاء إلي.

- قدر تبكي وتريد سراج الدّين!

- لماذا؟! ماذا هناك؟ ما الخطب؟

ضحكتُ ضحكةً خفيفةً ثمّ قبّلتُه على جبينه.

- إنّها تحبُّه وخائفةٌ من أنّه سيبقى هنا ولن يعود.

- لكنّه سيبقى هنا حقا ولن يعود!

- ماذا؟! (خبر آخر انهال عليّ كالصخر من أعلى الجبل)

- أنا أمزح فقط، دعيني أناديه! (أجابني ضاحكا)

- هذا ليس مضحكا!

- مضحك بالنّسبة لي، يا فريق! (دلف ناحية سراج الدّين وهمس في أذنه ثمّ أشار إليّ، فأتى)

- ماذا هناك أختي؟!

- قدر تبكي وأريدكَ أن تهدّئها، لأنّها لا تريد البقاء.

- ماذا بها؟ أين هي؟! (سألني بِوَجل)

- في السّيّارة، هي خائفة.

- من ماذا أختي؟

- حين رأت كم يحبّك هؤلاء القوم، خافت من أنّك ستبقى معهم ولن تعود معنا.

برقتْ عيناهُ سعادةً وسارع إلى السّيّارة؛ وما أن فتحَ الباب الخلفي، وبمجرّدِ ما أن سمعت اسمها على شفتيهِ حتّى انقضَّت عليه كمفترس على فريسته، تحتضنهُ عنفا وتبكي بشدّة. المسكين، كان يحاول أن يرخي ذراعيها من حول عنقه كي يتنفّس، لكنها لم تكن تترك له الفرصة لذلك وكأنّه كان يحاول الفرار منها. صورتها أجمل ما يكون وهي بين ذراعيه، لم أجد تعبيرا يماثل جمالها سوى الدّموع. راقبته وهو يحملها ويمضي بها على شّارعه الّي ترعرع فيه، وأنا كلّي ثقة فيه، ثقة بأنّها في مأمن معه. تراءتْ أمام عينيّ أمنيةٌ تمنيتها قبل أن يحصل معي كلّ هذا، قبل قدر، قبل قدري. أمنيتي في أن أرى زوجي يحملُ ابننا ويتّجه به نحو المسجد للصّلاة معا، وأنا أراقبهما من النّافذة يدلفان بعيدا بقميصي صلاتهما...قطع عليَّ والدي أحلام يقظتي بيده تربّت على كتفي. قرَّبني إليه ليمسح عيوني، ثمّ أهداني قبلة لكلّ عينٍ، وقال:

- لا تقلقي، لن يغادر أبدا. كان يعشقها قبلا، فما بالك الآن وهي قد اعترفت بحبّها له!

ثم نظر في عينيّ وأضاف:

- أنا واثق من ذلك لأنّك كنتِ تُعانقيني بتلك الطريقة كلّما حاولت الذّهاب للعمل، تبكين وتتوسلين على ألّا أذهب، وكنت متشوقا للعودة إلى المنزل كلّ ليلة فقط كي تُعانقيني من جديد.

رآني أذرف دموعي من جديد على ذكريات سلبها الزمان منّي وأكل من أجساد أصحابها، وخفت من يوم آت أقرب ما يكون فيه لتقبيل جبين والدي هو تقبيل التربة التّي دفن تحتها.

- ابنتي، كلّ شيء بقدر، كلّ شيء في هذه الدنيا قدّره الله سبحانه وتعالى، فلا يوجد ما سيغلب مشيئة الله ولن يتعدّى أحد تدابيره لنا؛ فهل تظنين أنَّ الله، بكلّ رحمته ومحبّته، أرسل سراج الدّين إلينا ليأخذه منّا الآن؟ بعد كلّ ذلك الصبر على كلّ ذلك البلاء؟! ابنتي، مهما كان أو ما سيكون، أريدك أن تعلمي أنّني فخورٌ بك وراضٍ عنك وعليك وواثقا كلّ الثقة فيك. يخاف معظم الأهل يوم الحساب، يوم يحاسبون على أخلاق ذريّتهم وأفعالهم، أقوالهم ونيّاتهم، لكن ليس أنا. أنا لا أستطيع الانتظار كي أقف أمام الله ويسألني عنك، أنا أتحرّق شوقا يوم يحاسبني عليك، لأنّني أفخر رجل في الدّنيا بأخلاق ابنته وصبرها، بعفّتها وسِترها. أنا واثقٌ بقدر ثقتي بحسن ظنّي بالله، أنَّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؛ سواءً هنا في الحياة الدنيا أو هناك في الآخرة، كلّ شيء سيكون بخير. أدخلي عليهم يا ابنتي، ألقي السلام وابتسمي، فالحزن لا يليق بعينيك!

احتضنتُه بقدر ما احتضنت قدر سراج الدين، وشكرته على وقوفه معي أيام شدّتي في حين أنّ معظم الأولياء ما كانوا ليصدّقوا بناتهم، وكانوا ليتخلّوا عنها حفاظا على الشرف.

- لقد اعترفت بحبّه، هل تعرفين ما معنى هذا؟! (سألني وهو بين ذراعيّ يحاول الفرار من عناقي)

- ماذا؟

- لقد خسرت، من جديد.

- كالعادة!

- لا تخبري أمّك!

دخلت المنزل، وما إن دلفت أول خطوته على عتبته حتّى هجمن عليَّ النسوة والبنات والأطفال بالقبلات والعناق والأسئلة. آه! الآن فهمت لماذا تصرّف سراج الدّين بتلك الغرابة حين هجم عليه عبد الغني وأولاده، لا عجب...سررت بحالك، كيف معرفتك!

# الفصل العاشر

- لم لا تُريدينني أن أبقى هنا؟ ظننت أنّني مجرّد أحمق!

- هذا لأنّك أحمقنا... (ردّت عليّ بنبرة منكسرة)

- لماذا تظنين أنّني سأغادر؟

- لأنَّ الجميع يكرهني ويهربون منّي (أعادت حشو رأسها بصدري)

- هذا ليس صحيحا!

- بلى صحيح، الكلّ يرحل عنّي، جدّة أمي وجدها، خالاتي وأخوالي، أعمامي وعمّاتي، كلهم يكرهونني!

- ما الّذي يجعلك تقولين هذا يا قدر؟

- أراهم، أتذكّرهم، أراهم في أحلامي!

- ماذا ترين؟! ماذا تتذكرين بالتحديد؟

- أتذكر أقوالهم و...نظراتهم و...(انقطع صوتها)

- اهدئي قدر، اهدئي أنا معك، أخبريني ماذا ترين في أحلامك، ماذا تتذكرين؟!

- أتذكّر حين كان يأخذني جدّي للصالة معه وأنا صغيرة، أحلم بهم، أتذكرهم، ينظرون إليَّ نظرة اشمئزاز وكره، كلهم. في المدرسة يضربُونني ويُطلقون عليَّ ألقابا، يمنعون بقية الأطفال من اللعب معي، حتّى الأساتذة لا يحبّونني، يصرخون بوجهي، يحاولون خلع نقابي بالقوة ويقولون أنّ هذا لأجل ألّا أصبح منافقة مثل أمّي، يشتمونها أمامي وحين أبكي دفاعا عنها يضحكون ويقولون بأنّها على الأرجح تحب تلك الألفاظ. أذكر والد جدّي يصرخُ في منزلنا ويقول أنّه لن يضع خطوة أخرى على عتبة المنزل مجدّدا ما دمت أنا داخله، أذكرهم جميعا، الجميع يرحل عنّي ويكرهني، وأنت أيضا ستكرهني وترحل ولن تعود!

لا أنكر أنّني بكيت، فلا عيب للرجل أن يبكي. هناك دوما سبب للبكاء، لكن المرء لا يحتاج عذرا للبوح به، فإن رأيت رجلا يبكي، لا تلحّ عن السبب، إن أخبرك طوعا فقف معه مساندا، وإن أبى فقف معه صامتا إلى أن يفعل. لم أصدّق أنّ كلّ هذه البراءة تُخفي كلّ تلك النُدوب، تصبر عليها ولا تبوح بها. كلّ هذه البراءة نَجتْ من كلّ الأوضاع الموحشة الّتي مرَّت بها، كلّ ذلك الألم الّذي يعود مع كلّ خوفٍ وذكرى. مسحتُ عيونها الّتي تحاول أن تتفادى نظراتي، وما أن جفّفت آخر منها قطرة حتّى احتضنتني من جديد وأخفت وجهها على صدري. لا أدري ما سأفعل أو ما سأقول، فكيف تداوي نذُوب حياة بأكملها، لمن بدأت حياته للتّو؟!

- قدر...؟

(لم تردّ عليّ سوى بشهقات دموعها تعتصر قلبي)

- قدر عزيزتي...؟

- ماذا؟

- أنا لن أغادر!

- بلى ستفعل!

- لا، لن أفعل!

- أتعدني؟!

- أعدكِ أنّني لن أغادر إلّا لسببين لا ثالث لهما.

- ما هما؟!

- حين أموت، أو حين تطلبين منّي أنت الرحيل.

- لا، لا، لا، لن أطلب منك المغادرة أبدا، وسأسأل الله أن يجعلك تعيش للأبد، للأبـد!

أزاحت رأسها عن صدري وابتَسَمَتْ، لكنّها سرعان ما أعادته حيث كان، باكية من جديد!

- أنت فقط تقول هذا لتُسكتني إلى حين موعد مغادرتنا، لقد وعدتني أن نحفظ القرآن معا حين نعود وأنت لن تعود معنا!

- أنا أيضا أدين لك بخدمة، أتذكرين؟! لن أغادر دون أن أقضي ديني لك.

- لن أطلب منك خدمة أبدا!

- كما أنّه إن رحلتْ، من سيربّي القطّة معك؟

- قطة؟! (أخرجت رأسها من على صدري)

- نعم قطّة، من سيحمّمها ويأخذها للطبيب، من سيعلمك ماذا يجدر بك اطعامها وكيفية الاهتمام بها؟ أنتِ لا تعرفين تربيةَ القطط، أليس كذلك؟

(هزّت رأسها نفيا)

- ماذا عن أمّك أو جدّك وجدّتك؟

(هزت رأسها نفيا من جديد)

- أرأيت؟! أنا الوحيد الّي أعرف كيف، وسأحتاج وقتا طويلا كي أعلّمك كذلك، فكيف سأبقى هناك؟!

- ...لا يمكنك؟!

- صحيح! هل نذهب لرؤيتها كي تختاري ما أعجبك منها؟

- ألن ترحل عنّي أبدا؟

- لا دنيا ولا آخرة إن شاء الله!

أسندت رأسها على كتفي بصمت وأغمضت عينيها. قلتُ هذا مرّات عديدة ولكنّها لن تكون كافية أبدا... أنا أحبّها!

عدتُ للمطعم حاملا إيّاها، وما إن سمعت صوت الرجال هناك حتّى حشرت رأسها في صدري من جديد، كان شعورا جميلا أن يثق فيك أحدٌ بهذا القدر من بين الجميع، خاصّة شخص بهذا السّن والبراءة.

- عمي عبد الغني...! (ناديته)

- نعم ابني، انتظر، من هذه الظريفة؟! ما شاء الله!

- هذه حفيدتي. (أجابه عبد الله)

- تبارك الرحمان أحسن الخالقين، لكن ما بها؟

- هي لا تحب الغرباء، كمّا أنّها خائفة من أنّكم ستبقون سراج الدّين هنا كي لا يعود معنا.

- إذن سراج الدّين ليس غريبا؟!

- أتمزح؟ إنّها تحبّه أكثر منّا. منذ أن أتى هو، نسيَتنا نحن

- غير صحيح (قالت من جنب قميصي)

- عمي عبد الغني، هل لا زلت تطعم القطط المشرّدة؟

- إلى يوم مماتي!

- أين هي الآن؟!

- هي في مكانك المفضل.

- صغيرة الباندا هذه تريد قطّة، هل تمانع؟

- لا، طبعا لا، اذهب، يسرُّني أن تجد إحداها منزلا، وأنا متأكد أنَّ هذه الصّغيرة ستعتني بها كما اعتنَتْ بك.

- سأفعل (قالت من جديد بنبرة خافتة من بين ثنايا صدري)

- لا تقلقي صغيرتي، لن نستطيع ابقاءه هنا حتّى وإن أردنا ذلك.

وأنا متّجه نحو الدّرج سمعتهما يتحاوران من خلفي:

- مكانه المفضّل؟!

- نعم، السّطح، كان لا يفارقه ليلا حين يفارقُ النّوم جفنيه

- وماذا يفعل هناك؟!

- لا شيء، يراقب السّماء، جالسا دون حراك.

- إذن فهو غريب الطّباع حتّى قبل أن يصل إلينا. (ضحك عبد الله)

- غريب منذ الولادة (بادله الضحكة معه ثمّ سأله) أين هو أبوها؟ لماذا لمْ يأتِ؟ المكان يسع الجميع!

- ليس لها والد!

- كيف هذا؟!

أكملتُ صعودي آملا خيرا؛ وعدني أن يخبرني بالقصّة فور ما أجعل قدر تعترف بحبّها لي، لكن لم يكن هذا لا المكان ولا الوقت المناسبين لفعل ذلك. ما إن وصلت للسّطح وفتحت الباب، ارتفعت أصواتُ القطط وقفزت قدر من حضني، تركض وراءهم وتقلّد أصواتهم، تحمل هذه وتلك. مجرّد كتلةٍ سوداء صغيرة وظريفة تركض هنا وهناك. جلستُ في مكاني المعتاد هناك أراقبها وابتسم رغما عنّي. أتساءل...

كيف لمثل هذه البراءة أن تنجو كلّ هذا الوقت؟

كيف لمثل هذه الطفلة أن تكون دون أب؟

هل مات؟ كنت لأعلم! هل طلّق أمّها وغادر؟ هو مجنون!

لماذا أسموها قدر؟!

لأمّها اسم جميل، أنابيس، قرأتُ أنّه اسمٌ عبري بثلاثة معانٍ، لا أدري أيّهم الصحيح أو الأصح، لكن بكلّ تلك المعاني الثلاثة، صفة منها ولو بالقليل. المعنى الأول هو "زهرة بيضاء جميلة" تماما كبشرتها كما قالت أمّها عنها وعن قدر. المعنى الثاني وهو "متمردة" مثلما تمرّدت على كلّ من بسنّها يسعون وراء معيشة ضنكا بعيدا عن ذكر الله، بحثا عمّا أسموه تطوّرا حضاريّا وتفتّحا عقليا كي يجمّلوا ضعفهم للشهوات وينافقوا ادمانهم على النزوات ويتوهموا علوّهم واختلافهم بالقاع المزدحم. المعنى الثالث هو "أرنبة ذكية وسط أرانب غبية" وهي التّي اختارت النّقاب والتقرب من الله لأنّها تعلم أن الحياة مجرّد لحظات وتنتهي، تعلم بعلامات السّاعة تذهب وتأتي، وتعلم أنَّه إنْ لم يكن الموت قريبا، فالسّاعة أقرب، والعكس صحيح أيضا، بدل غيرها من الفتيات اللواتي يتبرّجن تبرّج الجاهليّة ويلبسن ما يفتح أبواب النار لهنّ ويغلق أبواب الجنّة لآبائهن، كذبا على أنفسهن بأنّ نيّاتهن وطيبة قلوبهن تسبقن أفعالهن، وأنهنّ لا يفعلن ذلك إلّا رغبة في دفعة من الثقة بالنفس وليس رغبة بأنظار الشباب إليهن، فإن كان وسيما أو غنيّا فهو نبيل ذو حسّ بالموضة والجمال، وإن كان دميم الخلق فقيرا فهو حيوان وعديم أخلاق أيضا. وإن كان القلب سليما بنيّة بيضاء حسنة، لكان المظهر سليما يقول على صاحبه مسلما ومؤمنا وطاهرا، لكن لا حياة لمن تنادي بزمن يُقتل الناصح فيه لنصيحته، ويُكرم الجاهل فيه لجهله، ويشهّر له كي يتبعه البقيّة، إمّعة.

بصراحة، لنواجه الواقع، نحن في آخر الزّمان، في عالم مليء بالأغبياء الّذين يصرّون على جهلهم، منهم من يلقّب نفسه دكتورا ومؤرّخا وأسطورة أيضا. أيّ شيء على هذه الأرض، أيّ قول، أيّ فعل، أيّ خطاب، أيّ لباس، بمقدوره تحريفهم عن أصلهم ونثرهم بعيدا عن مبادئهم وقيمهم، تحت راية الحياة والحبّ والتّطور والتّشبّه والرّغبة والشّهوة والتّحرر والشهرة والثراء...لَيْتهُم يعلمون منْ وراء هذه الرّايات، وسواس نفسٍ أمّارة بالسوء و شياطين تعمل يدا بيد مع من والاهم، خططا ماسونيّة يعملون جهرا وسرّا في كلّ البلدان على إعلاء كلمة الباطل وقائلها، جعلهم مشاهير وقدوات للشباب، وطمر كلمة الحقّ والعامل بها، كي لا...

- قبّلها...قبّلها...

قطعت عليّ قدر حبل أفكاري، وفاجأتني بهرّة صغيرة زرقاء العيون مثلها ذات فرو أسود وأبيض، تشبهها بالنقاب وكأنّها أختها.

- لن أقبّلها!

- هيّـا! قبّلها! إنّها تحبّك، أنظر إليها!

- هل تعجبك؟ (سألتها بعد أن قبّلتها)

- أنا أحبّها!

- إذن هل هذه هي الّتي تريدين أخذها معك للمنزل؟

- معنا، معنـا! قل معنا!

- معنا، هذه الّتي تريدين أن نأخذها معنا للمنزل؟

- نعم، هذه. هي مسكينة ووحيدة بلا أب ولا أمّ.

- كيف عرفت؟!

- لا توجد قطّة أخرى تشبهها!

- وإن كانت هناك؟!

- سنأخذها معنا أيضا؛ احملها، هيّـا!

- آه...

- هيّا، هي لن تعضّك، إنّها لطيفة جدًّا!

- لقد قبَّلتها!

- هي تحبّك، ألا تحبّها؟

- بلى، أحبّها.

- إذًا لمَ لا تحملها؟

- لأنّك تبدين أجمل وهي بين ذراعيك!

- التّملق لن يأخذك إلى أيّ مكان، ستحملها يعني ستحملها!

- ماذا ستُسمّينها؟!

- خَلْق!

- خَلق؟! هذا اسم غريب، كيف فكّرت به؟

- احملها وربّت عليها وسأخبرك!

(حملتها)

- خلق لأنّها خلق الله، وأنا لست أمّها ولا أباها لأسمّيها، فأيّ حقٍّ لديَّ لآخذ حقّهما في تسميتها؟

- لقد أقنعتني، نوعا ما!

*** *** *** *** *** *** ***

لا أذكر آخر مرّة رأيت فيها أمّي سعيدة بهذا الشكل، مضى وقت طويل منذ أن رأيتها مع نسوة غيري تستمتع بوقتها. هي متعوّدة على الحديث. لديها خبرة في ذلك من أيّام شبابها. سمعتها تتكلم مع زوجة عبد الغني عن وصفات الحلويات، عن أنواع القماش، عن ديكور البيت وسراج الدّين. أما من جهة أخرى، فلم أكن أبلي بلاء حسنًا على الإطلاق.

- أنت جميلة!

- شكرا.

- أعجبني نقابك!

- شكرا.

- كم عمرك؟

- شكرا، أقصد نعم هي أمّي، أقصد...آسفة، ماذا كان سؤالك؟!

- نعم، لقد أتقنتُ الأمر -

أخبرهم عبد الغني عن قصّة سراج الدّين منذ أن انتقل إلى هذا الحي. لا أحد يعرف حياته قبل ذلك، لماذا انتقلوا إلى هنا أو من أين أتوا؟ كلّ ذلك جعله أكثر غموضا بالنسبة لي، لكن على الأقل عرفت قصّته مع هذا الحي.

حيّ متخلّف علميا وأخلاقيا، لا يسلم من يدهم ولسانهم إلّا من شابههم بالقبح وقاربهم بالدم. حين انتقل سراج الدّين إليه أحسَّ الجميع بغربته عنهم، باختلافه عن فسادهم. منهم من حاول ضربه، تهديده، طرده، تلفيق التهم له، ومنهم من حاول حتّى قتله بقارورة زجاجيّة خلال شهر رمضان الفضيل قبيل المغرب لمّا كان بطريقه للصلاة في المسجد. إذا جمع نفاياتهم يعيدون رميها قرب بيته عمدا واستفزازا كي ينحدر إلى مستواهم فيهزمونه بما يعرفونه أفضل، طول اللسان وحجم السلاح. كان من النوع الّذي يقرأ الكتب فوق السّطح بدّل التّجمع مع أولاد الحي وشبابهم لمراقبة الصّاعد والنّازل، فإن كان ذكرا دفعوه للشجار، وإن كانت أنثى دفعوها للصراخ. من النوع الّذي لا يخرج إلّا إذا كان له شأن بالخارج، ولا يدخل إلّا إذا أنهاه. هذا جذب إليه إعجاب نسوة الحيّ وكباره، ممّا زاد من كره الشّباب له، فنشروا عنه أسوأ الإشاعات الّتي تقزز السامع، وحتّى أنّهم اتّهموه بتداول صور وفيديوهات للإرهاب.

حاول فتح محلّ موادٍ غذائية ليعمل فيه بينما يدرس في نفس الوقت، لكنّ جاره وابنه الشّاب الّذي ترك مقاعد الدّراسة، بعد أن علما بخطّته، فتحا محلّا للمواد الغذائية قبله بيوم، ففتح سراج الدّين مكتبة بعد ذلك، وبما أنّ الحيّ لا خبرة له في الآداب ولا التّعليم، انتهت المكتبة بمدخول منعدم. ركّز فيها على بيع الحلويات لأطفال المدارس، لكن نَفس ذلك الجار الحسود أراد أولئك الزّبائن الصّغار لنفسه، فنشر إشاعات بين آبائهم مفادها أن سراج الدّين منحرف، يبيع لهم المخدرات، يتحرّش بهم ويريهم أفلاما إباحة، حتّى غادر جميع الزبائن، فأغلقها. مهما بلغ بهم الكره والحقد، فسراج الدّين لم يكن يبلغ منه سوى التّخلق والعلم والصبر.

بما أنّه وسيم، أو بالأحرى جميل بأخلاقه، ادّعت إحدى الفتيات أنّه حبيبها بالسرّ لتبعد عنه نظرات فتاة أخرى من الحي بحجّة بالغيرة، ولكن ما إنْ انتشر الحديث حتّى زاد حقد الناس عليه. حاولوا جرّه للمحاكم، وحاول هو كسب قلوبهم بتدريس أبنائهم بالمجّان.

أخذَ شهادة الباكالوريا رغم أنوفهم الحاقدة ومحاولاتهم البائسة في خلق الضجيج والمشاكل حوله لمنعه من الدراسة أيّام تحضيراته للامتحان، ثمّ بعد ذلك بدأ البعض منهم بالتّعرف عليه قليلا بما أنّه كان الوحيد هناك بمستوى جامعي، بينما البقيّة ينتظرون سنّ الثامنة عشر من أجل الالتحاق بالجيش وفروع الأمن، ليعيثوا بالأرض فسادا تحت حماية القانون وفوقه.

ثمّ هناك زوجها، عبد الغني، سكيرٌ مقامرٌ متشرّد، لم يكن أحد يحيّيه سوى سراج الدّين بتحيّة الإسلام كاملة، ولا غيره يبتسم له. كان سلام سراج الدّين وابتسامته تعيدُ له ضحكة شبابه واحساسه بالرحمة بين البشر. حين كان يُغشى عليه سكرانا وسط الطّريق ليلا، يجدُ نفسه نهارا بمحاذاة الرّصيف مستلق على فراشٍ ناعم وتحت غطاء دافئ. خلال أيّام الشّتاء الممطرة، ينهار بالشارع مبلّلا ويستيقظ جافّا داخل منزله، دون خوف من سكره ولا هويته من إشاعات الناس حوله.

علمَ سراج الدّين أنَّ الجميع كانوا يذمّون بالنصح عبد الغني، لكنْ بطريقةٍ جعلت عبد الغني يكره النّصيحة وينبذها، ينهونه بالصراخ عليه وفضحه بالغيبة، يذلّونه ويشتمونه. استسلم الجميع بينما عمل سراج الدّين في صمت ابتسامته حتّى دخل قلب عبد الغني، وعالجه من ندوب نصائحهم المزعومة قبل أن يبدأ نصحه بالطّريقة الصّحيحة. خجل عبد الغني من نفسه ومن الدخول سكرانا إلى منزل مشبّع بالقرآن والصّلاة، لذا حاول التوقف عن ذنبه، وحين تغلبه نفسه الأمارة بالسوء، لا يعود للحيّ خجلا من أهله حتّى يفيق من سكره، لكنَّ كان سراج الدّين يبحث عنه دوما حين لا يجده في مكانه، فأحيانا يجده وأحيانا أخرى لا. كلّنا نخطئ، لا نريد من يُعيبنا بأخطائنا ويلمزنا بعيوبنا، بل نريد من يُساعدنا على تصحيحها ومن ثمّ تصليحها وثمّ تخطِّيها، نريد من يساعدنا بالفوز على شياطيننا ونفوسنا الأمّارة بالسّوء، نريد من لا يُريد لنا سوءًا وإنْ أردناه لأنفسنا، وسراج الدّين وجد طريقة لفعل ذلك. لم يحدّثه عن الشّراب وأضراره فقط، عن ذنوبه وكبائره وكفى، بل جعل عبد الغني يُدرك أسباب إدمانه، جعله يعرفُ أنَّ هناك قلبا سيؤنّسه في لياليه وأيّامه بدل الشّراب، يحدّثه عمّا بقلبه من خراب. مع الوقت، فكلّ ما يتطلّبه الأمر بعض الوقت، أحبّه حبّا جمّا وأصبح يذهب للصّلاة معه، يصوم معه، يحضر لدروس الإمام معه، وهكذا رويدا حتّى أصبح الرّجل الّذي رأيتهُ قبل قليل، يقبّل ويعانق سراج الدّين.

حين دخل سراج الدّين منزلنا لأول مرّة، لم يَبدُ لأيّ أحد منّا أنّه من النّوع القوي، لكنّه أثبت لي اليوم أنّه مهما كان الإنسان نحيفا أو عريضا، مُتدرب فنون قتال أو شاعرا لا يقدر على العنف، فذلك ليس معيار القوة. أثبت لي أنّه الأقوى، لأنّه مع كلّ الّذي حصل معه في حيٍّ واحدٍ كلّ يوم خلال سبع سنوات كاملة، بقي صابرا وثابتا، فلم يتغيّر إيمانه ولا أخلاقه، عصفت به الرياح ولم تحمله عن مبادئه بعيدا. أكّد لي فعلا، أنّ الأخلاق رزقٌ من الله أيضا.

كنتُ متأكدةً من أنَّ قدر لن تأتي وستبقى معه، فهناك الكثير منَ النّسوة هنا، وأيضا هذا الولد اللطيف الّذي يلاحقني أينما خطوت. كنتُ أعلم أنّها خائفةٌ من النّاس، ولا تنعم بالأمان إلّا في المنزل، ولكنّها مع سراج الدّين الآن، إنّها بخير، أنا متيقنة من ذلك. في لحظةٍ ما، كنت أنعم بنوع من راحة بال خالية من الخوف، أحسست أنّني بنت طبيعية. ابنتي في أمان. أبي يحدّث معشر الرجال. الفتيات هنا يُحسنَّ معاملتي ويشاركنني كلّ شيء حتى لبسهن. أمّي سعيدة بصديقة جديدة في مثل عمرها...مثل هذه اللحظات لن تدوم

للأبد؛ علينا أنْ نأخذَ منها ما نستطيع ونعطيها حقّها، لأنَّ مثل هذه اللحظات، هي ما نتمنّى أنْ تعود بعد أن يرحل أصحابها، فقط لنعيشها مكرّرة إلى الأبد.

منذ مدّة طويلة لم أحظ بـ "حديث فتيات".

- لماذا ترتدين النّقاب وأنت آية في الجمال؟ (سألتني إحداهن وكأنّ النّقاب كُتب على البشاعة)

- أمر الله، وأمر الله لا مساومة فيه (أجبت بابتسامة)

- لا أظنّني أستطيع، أخاف من العنوسة!

- الزّواج رزق من الله. إن قدّر الله لك الزواج لفعلت ولو كان جميع رجال الأرض عميان، وإن لم يقدّر لك الزّواج لما فعلتِ ولو رأوك كما يرون الذهب والمال.

- لكن معظم الرجال لن يتزوجوا منقّبة!

- لكن القلّة الطّيبة ستفعل!

- من أين يمكنني الحصول على واحد؟

- لقد أخطتُ هذا بنفسي، لكن هناك محلّات خاصّة تبيعه.

- هل هو غال؟

- لا تلبسه من تقدّر نفسها بثمن بخس، لكن يُمكنني أنْ أخيط لك واحد وأرسله إليك بعد أن أنتهي منه.

- وأنا؟!

- أنتِ أيضا، من دواعي سروري.

- لم لا تجعلين ذلك مهنة؟

- لأنّني لا أعرف فتياتٍ يرغبن به.

- لكنّنا نعرف البعض منهن، كما أنّه سيشكّلُ هديّة رائعة للكلّ.

- إذن ماذا تقترحن؟!

- نحن نتدبر لك الزبائن وأنت تخيطينها وتُسلّمينها لهن.

- لا أدري، فأنا لم أفكّر في جعلها مهنة قبلا...

- هل تملكين عملا آخر؟

- لا

- إذن لم لا؟!

أعجبني الأمر هناك. كنت أحس بالأمان كما لو كنتُ في بيتي. يهتمون بالصّلاة وقراءة القرآن، أملي أن تكون قدر بنفس اطمئناني، آمل أنّها كذلك، يا رب، فنحن نحتاج هذه العائلة.

# الفصل الحادي عشر

لا أدري كيف وضعتُ فكرةَ قُدرتي على النّوم في المكان نفسهِ الّذي لم أستطع النوم فيه قبل أشهر عدّة. يبدو أنّني لم أتخطّ فكرة أنَّ والديّ كانا ينبُضان بالحياة هنا، في هذه البقعة بالذّات. الآن، أنا عالق في غرفةٍ مليئةٍ بالرّجال، وخلفَها نسوةٌ غير قادرات على القيام بثلاثة أشياء: النّوم، السكون، والصمت، ما الّذي يتحدّثون عنه كلّ هذا الوقت بحق الله؟! لا أستطيع الذّهاب إلى السّطح بينما هنّ يتجوّلن بأنحاء البيت، ولا أستطيع الخروج أيضا. كلّ ما أنا قادرٌ على فعله هو البقاء هنا والاضطجاع في الظّلام. قد يبدو هذا من شيمي، لكن ليس وأنا محاط بالناس، أحتاج مقداري من عزلتي اليوميّة.

- بني، لا تستطيع النوم؟ (سألني عبد الغني)

- لا، ليس فعلا!

- ولا أنا، ما هي أسبابك؟

- نفس الأسباب الّتي تَركتُها تنتظر هنا؛ وأنت؟

- أنا فقط متحمِّس لعودتك.

- حقا؟ ليس بسبب ثرثرة النسوة؟

- بني، أنا متزوّج منذ مدّة طويلة، تلك الثّرثرة أصبحت جزءا منّي ولا أستطيع النّوم دونها.

- هل سيحصل لي هذا حين أتزّوج وأحظى بعائلتي الخاصّة إن شاء الله؟

- هذا أقلُّ ما سيحصل.

- هناك المزيد؟!

- صدّقني، مقارنة بما سيكون أمامك في الزّواج، الثّرثرة هي العلامة الوحيدة على أنَّ كلّ شيء بخير، الصّمتُ هو ما عليك أن تقلق بشأنه.

- حمدا لله أنّي لن أتزوج قريبا إذن!

- لكنك ستكون رائعا مع الأولاد، تلك الفتاة الصّغيرة متشبّثة بك مَجازيا، وممّا رأيت صباحا، حرفيًّا كذلك!

- وأنا متعلّق بها أكثر من ذلك، مَجازيا فقط، لا أظنّ أنّه ممكنٌ فيزيائيا أنْ أتعلّق بها حرفيا.

- ليس مع وزنك الزائد لا، لكن لو كان ممكنا لفعلتْ

- دون تردد!

- هل علمت أنّها لم ترغب بالنّوم دونك؟

- حقا؟!

- نعم؛ زوجتي أخبرتني.

- هل وضعوا لها القرآن؟

- نعم، لا تقلق يا زعيم، فأمّها معها، هل نسيت؟

- أعلم، أعلم، لكنّها تعني الكثير لي، إنّها مميّزة جدًّا!

- كلّهم كذلك، حتّى أنت. كان الله يرعاك ويُرشدك منذ البداية...

- سبحانه وتعالى.

- إذن أنت لن تعيش معي أبدًا بعد الآن؟

- ليس دونها، لا.

- هل تحبّها لهذه الدّرجة؟

- بل وأكثر، كما أنّك لم تر الخدع الّتي تمارسها على الدمى. صدّقني، لا أريد أن أكون إحداها!

- هل تظنّ أنّها ستحبّني أنا يوما ما هكذا؟

- لا آمل ذلك، على الأقل ليس بنفس الدّرجة!

- أناني!

- لقد عملتُ بجدّ، بجدّ حقًّا، كي أكسب حبّها.

- وسأفعل المثل!

- حظًّا سعيدا في ذلك، ستحتاجه!

أعاد لي ذاك الوقت مشاعر قديمة، كلّ تلك اللّيالي التي قضيتها معه. كان شعورا جميلا تمنيتُ لو أحظى به في حياتي اليومية دون أن أضطر للتخلي عن قدر، لكنّني بالغٌ كفاية كي أعرف أنَّ المرء لا يمكنه الحصول على كلّ شيء. حين ساد الهدوء بين جدران المنزل، عادت إليَّ ذكريات أكثر ممّا كنت أبتغي، وعادت إليَّ أحلامٌ وأمنياتٌ تمنّيتُ لو حصلتْ تحت هذا السقف، أحلامٌ وأمنياتٌ حتّى وإن تحقّقت الآن، فلن تكون ندّا للخيال، لأنّني فقدت من كان الحلمُ معهم أجمل.

صعدت للسّطح بعد أن هدأت النسوة كليّا، وجلستُ هناك بمكاني أتأمّل النّجوم والقمر، سواد الفضاء بينهم؛ لا أعلم لم كنتُ أفعل ذلك أو متى بدأتُ بفعله وفي أيّ مرحلة من حياتي، لكنّني أشعر بالرّاحة هناك، بنقاء أفكاري وصفاء عقلي، بضربات قلبي تخفتُ وتطمئن، وبروحي تهدأ وتستكين. بالماضي، كانت أمّي أحيانا تفاجئني بزيارةٍ، أسمع خطواتها تدلف على السلالم، فقط كي تجلس معي، نضحك على أحداثٍ طريفةٍ حصلت لنا مع النّاس. والدي كان ينضمُ إليّ أحيانا، لكن قليلا ما كنّا نضحك دون وجود أمّي، كانت هي جوهرة البيت، نعمةً من الله لأجل إسعادنا. كنّا نتناقش حول ديوننا ومخططاتنا المستقبلية، عن الوظائف والفواتير المتراكمة، إلى أن تضيق نفوسنا، فنرفّه عنها بأحداثٍ من ماضينا وذكرياتٍ كانت تجمعنا دون كلّ تلك المشاغل ومخاوفها. غريبٌ كيف أنَّ الأوقات العصيبة قد تصبح ذكرياتٍ عزيزة ما أن تفقد من كنت تشاركهم بها.

لا أدري إن كانَ هذا مجرّد احساس، أو حسن ثقة بالله، حقيقة أو رغبة، لكنّني أشعر حقًّا أنَّ أبي وأمّي بخير هناك، وبقدر ما أودّ إعلامهما بأنّني أفضل حالا، إلّا أنني، رغم فوزي بحبّ قدر وكلّ هذه القلوب المجتمعة حولي الّتي تبادلني المحبّة، بشيء مفقود داخلي. فهل هناك يجبّ عليّ أن أجده؟ أم أنّ الزّمن ببساطة لا يشفي كلّ الجراح؟

- سراج الدّين؟ هل نمت ولو قليلا؟

- لا، كم السّاعة الآن؟

- الثّالثة صباحا.

- أنت لم تنم سوى ساعتين، لم استيقظت؟!

- أنا القيّم الآن، هل نسيت؟ يجب أن أتجّه للمسجد.

- حسنًا يا سيّدْ قيّم، كان ذلك خطئي، لقد نسيت. سامحني سيّد قيّم!

- اشتقتُ إليكَّ حقًّا (قال ضاحكا) هل تريد الذّهاب معي؟

- هل تسألني إن كنتُ أريد الذّهاب إلى المسجد في وقتٍ يكونُ فيه فارغا ودون ضجّة؟ هل تعرفني على الإطلاق؟!

- حسنا، حسنا، ارتدي ملابسك وهيّا.

- قدر سترتعبُ حين تستيقظُ للفجر ولا تجدني!

- لا تقلق، سأرسل لابني رسالةً على هاتفه كي يطلب من عبد الله أن يحضرها معه للمسجد.

- مؤسف أنّها نائمة، كانت لتحبّ المسجد لها لوحدها.

- وأمّها كذلك.

- كيف عرفت؟

- من عبد الله.

- آه، وعن ماذا تكلمتما أيضا؟

- عش معي وسأخبرك.

- ...سأكتفي بهذا القدر، شكرا.

- ظننت ذلك.

- هل حكيت لعمّتي كلّ قصصنا؟ أحداثنا وحواراتنا معا؟

- نعم، جميعها. كلّ ليلة قضيتها معك محفورة في رأسي الأشيب هذا.

- إذن لابد أنّها تعرف بالضّبط والحرف الواحد أنّك لا تحبّ طبخها وتظنّ أنّه جاف؟

- ماذا؟!

- لابد أنّها تعرف أيضا أنّك تظنّ نفسك أمهر منها في أمور المطبخ من أبسط الأطباق إلى أعقدها؟

- هيّا، لا يمكنك لعب تلك البطاقة! لعبناها مع أمّك مُزاحا فانتهت المُزحة بملعقة الطّبخ على رؤوسنا. ما بالك بزوجتي وهي ليست بمزحة؟! زوجتي حسّاسة في هذا الموضوع أكثر من أمّك، هيّا، لا تفعل هذا بي، ستتسبّب في طلاقي بالتّأكيد!

- حسنٌ، لكنّك تدين لي!

- بماذا؟!

- لا أدري، ربّما سأحتاج خدمة لاحقا أو في المستقبل القريب إذا أطال الله أعمارنا بإذنه.

- لا يمكنني أن أدين لك بخدمة لا تعرف حتّى ماهيتها، ما هذا؟!

- حيلة علّمتني إيّاها قدر. أنا مدين لها، وأنت مدين لي.

- أشعر كأنّني أحمق!

- صدّقني، أفهم شعورك جيّدا!

*** *** *** *** *** *** ***

"البارحة طبختم لنا، واليوم سنطبخ لكم"

هذه هي العبارة الّتي بدأت بها أمّي يومها. ألا تذكر ما الّذي حصل معي خلال معركتي الأخيرة في ساحة المطبخ؟! أمّي الحبيبة تحاول قتلي...!!

- لن نسمح بذلك، فأنتم ضيوفنا!

- لكنّنا أتينا لنُعينكم لا لنزيد عليكم. (قلت أنا)

- تتكلّمين وكأنّك ستطبخين!

تُحاول قتلي ثمّ تُحاول إهانتي، لا بأس أمّي، لا بأس...!

- لم لا نتقاسم؟ بين التّنظيف والطّبخ.

- أنابيس ستنظّف معي!

- على الأقل ذاك شيء أجيد القيام به.

- اتفقنا إذًا!

- أمّي، أين هي قدر؟

- هل تسألين حقًّا؟!

- أنا أشتاق إليها!

- إنّها تعامل سراج الدّين كأنّه والدها!

الآن ذلك مؤلم. إنّها الحقيقة، إنّها تحتاج أبًا؛ لا جدّا، لا أخًا، لا خالًا، لا عمًّا...فقط أبًا.

- هل أنت مستعدة؟

- للتّنظيف؟ ولدتُّ مستعدة!

- دعيني أخرج ابني والده وأخبر إخوتي ألّا يدخلوا.

- بأي غرفة سنبدأ؟

- أيّ غرفة نستطيع احتلالها.

- وكيف نمنعهم من الدخول إلى الغرف الّتي انتهينا من تنظيفها؟

- بسيط، نضعُ منشفةً على عتبة أبوابها.

- ولن يدخلوا؟ هكذا ببساطة؟

- نعم!

- أظن أنّ كلّ العائلات الكبيرة لديها نظامٌ خاصٌّ بها!

أظنّني لم أستمتع بالتّنظيف في حياتي كما استمتعت به اليوم، ولم أنمْ في حياتي مثلما نمتُ تلك الليلة؛ كنتُ أشعرُ بأحاسيسَ جدّ متضاربة، بين منزلي وحياتي فيه، وبين منزل سراج الدّين وأيّامي به؛ في منزلي، كنّا دائما نحن، نحن فقط وغرفتي، كنتُ أشعر أنَّ مركز العالم فيه هو غرفتي، ولا عائلة غير عائلتي، لا خوف في منزلي غير خوفي من فقدانهم؛ كان منزلي هو عالمي ولا ضرورة لي كي أهتم أو أتدخّل في أيّ عالمٍ آخر خارج أسوار بيتي. بمنزل سراج الدّين، كان الأمر مجرّد فوضى، ولكنّها كانت فوضى حبّ، فوضى انشغال، فوضى في تفكيري وأعمالي؛ كنّا نخاف إذّا سمعنا صوت مكابح سيّارة، وما إن نطمئن أن الأولاد بخير، نعود لأعمالنا؛ كان تفكيرنا في فوضى غير الفوضى الّتي بين أيدينا، كنّا مشغولين جدًّا فِكرًا وجسدًا لدرجةِ أنَّ العالم لم يعد موجودا ليحتل مواطن الخوف فينا ويجعلنا نفكّر في الماضي أو المستقبل، كانت فوضى تجعلنا نعيش فقط للحاضر فيما بيننا، في مجموعةٍ كبيرةٍ لا تعرفُ مكانَ بعضها؛ إذا حان موعد التّنظيف ننظّف وإذا سمعنا الآذان نصلّي وإذا رأينا المصحف نقرأ وإذا شممنا رائحة الأكل، نتّجه للمطبخ، وإذا تكلّم أحدنا، نشاركه الحديث. صحيحٌ لا أحبّ الفوضى، لكن هذه الفوضى بالذّات...أحببتها!

- قدر! اشتقت إليك حبيبتي!

فتحتُ لها ذراعيَّ ما إن لمحتها تدخل الغرفة. استحيت من النظر في وجوههن، فهي لم تتعود عليهن بعد. ركضتْ نحوي بنقابها المتدلّي وارتمت في حضني تختبأ فيه. كان ذلك وما زال ودوما سيكون، أجمل شعور. لم يخرج منها سوى صوت رقيق ألقت به السلام علينا:

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله. (رددنا عليها جميعنا)

- هكذا أنتِ منذ أن أتيت، إمّا مختبئةً في صدر سراج الدّين أو مختبئة في حضن أمّك. (قالت زوجة عبد الغني)

- انتظري حتّى تتعودي عليّ، سأجعل بشرتك حمراء من القبلات. (قالت إحدى بناتها)

- لن أترك لها بشرةً لتحمرّ؛ سآكلها كلّها! (ردّت عليها أخرى)

- لن يأكل أحد ابنتي غيري أنا!

- وأنا؟ (سألت أمّي)

- لقد حظيت بفرصتك، لماذا لم تأكليني حين كنتُ صغيرة؟

- وهل تركك أبوك لوحدك ولو لثانية كي آكلك؟!

- لقد كنت طفلة بدينة، كنت لأكفي كليكما!

كانت تلك أيّامي ولياليَ معهن. الشيء الوحيد الّذي لم أستطع فعلهُ هو الخروج معهنّ لشراء حاجيات العرس، مهما كان معنى ذلك، فأنا لم أحضر زفافا قبل ذلك. ليس كأنّني لم أستطع، بل لم أُرد ذلك فحسب. لست من نوع الفتيات اللواتي يطلبن الكثير. سجّادة، مُصحف، كتاب ربّما، وسقفٌ يجتمعُ تحته من أحب.

حسنٌ، من وقت لآخر نزهة على الأقدام ليلا حين تخفّ حركة النّاس. لا أهتمّ بما يراه النّاس، فأخلاقي ونقابي يكفياننني، ولا أهتم بالموضة أيضا، لكنّني سأرتدي كلّ ما يحلو لي داخل منزل زوجي، لزوجي إن رزقني الله به وبحبّه، فأنا أريد حب الله، وإن سعيت لحب الله فلن يسعى لحبّي إلّا من يحبّه.

هناك كثيرٌ من التّعقيدات في الحياة الّتي لا يد لنا فيها نتركها لله، فلم نعقدّ الأشياء الّتي لنا يدٌ فيها وهي أبسط بكثير ممّا نعتقد؟!

# الفصل الثاني عشر

ذهبتُ مع قدر للصّلاة في المسجد؛ رأيتُ عبد الغنيّ لأوّل مرّة كقيّم على بيت الله، سبحانه مغير الأحوال؛ كيف التقيت به أوّل مرّة وكيف هو الآن! بعد الصّلاة تركت عبد الله وعبد الغني مع بعضهما، أصبحا كأصدقاء طفولة يتجوّلان شوارع الحيّ ويتحدّثان عن هندستها الفوضويّة، وعدت للسّطح مع الصّغيرة أشاهدها تلعب مع قطّتها، تطعمها وتكلّمها كذلك.

"لا يا خَلق، توقّفي!"

"لا تخافي يا قطّة، خَلق مؤدبة ولن تؤذيك"

"توقّفوا! توقّفوا عن الشجار! الأكل يكفي الجميع!"

"أنا لن أنظّف هذه الفوضى!"

"خَلق! إذا فعلتِ هذا مجدّدا فلن آخذكِ معي والله!"

"أنتَ تحتاجُ للاستحمام أكثر من زبائن جدّي"

ما إنْ سَمِعتْ خُطواتٍ تقترب منّا صعودا على الدرج تخلَّتْ عن كلّ شيء وركضت نحوي بسرعة كي تحتضنني وتخفي وجهها بين ثنايا صدري. أظنُّ أنَّ ذلك أراحني أكثر ممّا أراحها، وأظنّها تعلم بذلك أيضا. ابتسمتُ من فوري واحتضنتها بقوّة أكبر. كان الوافد إلينا عبد الغني يحمل بيده هاتفي النّقال الّذي تركته له، يتحدث من خلاله مع شخص ما، وما أن رأى قدر على تلك الحال حتّى ابتسم ابتسامة رقّت بها عيناه.

*** *** *** *** *** *** ***

كنتُ أتحدّث مع البنات؛ أصبحنا لا نُفارق بعضنا، فقد تجاوزنا مرحلة إكرام الضّيف، ثمّ عبرنا مرحلة الصّداقة، وحططنا رحالنا على أرض الأخوّة ولا أدري ما بعدها لأنّني لم أصل يوما لهذا البعد مع شخص ما. جاءني الولدُ الظّريف، حفيد عبد الغنيّ وأخبرني أنَّ والدي في حاجتي لأمر ما أمام باب المدخل. وضعت نقابي بسرعة وذهبت إليه على عجل، ليس لأنّني خفتُ على قدر أو أيّ شيء من ذاك القبيل، بل حتّى أنّني لم أفكر بأنّها في خطرٍ على الإطلاق! أجبته بسرعةٍ لأنّني كنتُ سعيدة جدًّا لدرجةِ أنّني اشتقت إليه وأردتُ أن أشاركه سعادتي بأحضاني. كان يحمل هاتفًا نقّالا بيده. أبي لا يمتلك واحدا، هو لا يعرف حتّى كيفية استخدامه!

- من أين لك الهاتف يا باشا؟ (غمزتُ له بابتسامة خفيفة فردّها عليّ بضحكة)

- من أحد أبناء عبد الغني.

- أنت لا تفكر في مشورتي لشرائه، صحيح؟! أنت تعلم أنَّ عِلمي بالهواتف لا يزيد عن علمي بتلك الـ...الأدوات أو الأجهزة الّتي تستعملونها في صالتك (دائما ما كان يسعده جهلي بتلك الأشياء لسبب ما)

- رضي الله عنك يا ابنتي. (قال مبتسما) لا، أريد الحديث معك في موضوع ما.

- خيرًا أبي؟

- خيرًا إن شاء الله ابنتي، خيرا كثيرا!

*** *** *** *** *** *** ***

- ابني سراج الدين، لقد قرّرنا أنا وعبد الله أن نقّرب موعد الزّفاف بما أنّكم جئتم خصيصا لحضوره.

- جميل، أنا متأكّدٌ أن هذا سَرَّ عبد الله كثيرا!

- نعم، كمّا أنّني فكرت بأمر آخر وإن كانت لي معزَّة في قلبك فلن ترفضه لي.

- طبعا، أطلب يا سيّد قيّم!

- سنُقيم زفافين؛ زفاف ابنتي، وزفافك أنت يا ابني!

- هل آذيتَ رأسك أم ماذا؟! لقد تكلمنا عن هذا وأذكرُ قولي لك أنّني أحمد الله على زواجي كونه بعيد المدى!

- نعم، أذكر، ثمّ فكرتُ بالأمر قليلا وقلت في نفسي لمَا لا يجبُ عليك المعاناة مثلي؟!

- آه، أقدّر اهتمامك وأخذ وقت من حياتك للتفكير بي؛ هل هذا انتقام من نوع ما؟

- لا، لكن يمكنني الاستمتاع به ما دمت أستطيع!

- إذن أنت جادٌّ تماما؟!

- كلّ الجدّ، نعم!

- لا زلت أرجّحُ فكرة أنّك ضربت رأسك! (قلت له بعد لحظة من التفكير)

- أنا بخير، أفضل من ذلك والحمد لله!

- بمن؟!

- هناك فتاة صالحة بحاجة للستر.

- مَن؟

- لا يهم ذلك!

- بلى يهم! وتُستر من ماذا؟

- لقد تعرّضت لحادث مؤسف!

- ألا وهو؟

أشار لي برأسه لقدر الّتي زاد تمسّكها بي لمّا سمعت بكلمة الزّواج. هذه الصّغيرة تعرف أكثر ممّا ينبغي. حين كنتُ في مثل سنّها...من أخدع؟! أنا لم أكن أعرف شيئا لما كنت بِعمرها، أنا حتّى لا أذكر كوني أقلّ من عشرة سنين في العمر!

همستُ لها أن تذهب لتكمل لعبها مع القطط بعد أن نزل عبد الغني الدرج، لكنّها لم تُرد تركي، وعدتُها من جديد أنّني لن أغادرها أبدا ثمّ قبّلتُها قبلتين على عيونها، فذهبت متردّدة ومتخوّفة من وعود تُلقى وتُكسر وكأنّها لعب صينيّة يسهل شراء أخرى بثمن زهيد، ابتسمت لها مطمئنا إيّاها ثمّ أكملت حديثي مع عبد الغني.

- لقد تعرّضتْ للاغتصاب، ونتج عن تلك الحادثة المؤسفة حَمْل غير شرعي. عليك أن تثق بي بأنّها عفيفة من البشر كعفّة زحل، لكن منذ ذلك الحين وكلام النّاس يلاحقها، أصبحوا يؤذونها بأقبح الكلمات والصّفات، وصراحة لم أفكّر بشخص على مقدرة من التفهّم والتسامح ليسترها تحت بشرع الله من غيرك، فأنا أعلم بقدر علمي بأخلاق والدك وسعادة والدتك معه، أنّك لن تؤذيها يوما ولن تلمزها بعيب حصل لها في حين يكن خطأها، وأبوها معي الآن على الهاتف ينتظر إجابتك.

- لكن ليس لديّ بيت ولا عملٌ براتب جيّد!

- عيبٌ عليك هذا الكلام، لديك منزلين وعملين إن شئت!

- أعلم...أنا لم أقصد هذا...لكن...!

- الله هو الرازق، وعبده عبد الله مصرّ على أن تعيش معه في بيته.

- حتّى عبد الله وسط هذا؟!

- نعم، لا يريدك أن تبتعد عن قدر.

- لن ينفع هذا يا عمّي.

- لماذا؟!

- لأنّها لن تقبل الزّواج بي!

- وهل أنت مجنون؟! لماذا تعتقد شيئا كهذا؟

- لأنّني...عقيم!

- هذا جديد عليّ، منذ متى؟

- منذ أن كنت صغيرا. سرق أحدهم كرتي ذات يوم لمّا كنت ألعب خارجا، وحين حاولت استردادها، أشبعني ضربا بكلّ جزء من جسدي حتّى أغمي علي.

- ما مشكلة العالم معك؟! لماذا لم تخبرني عن هذا من قبل؟!

- هذا ليس موضوعا يطرح نفسها على طاولة الأكل؛ بالإضافة، من كان يدري أنّك أنت من سيزوجني مستقبلا!

*** *** *** *** *** *** ***

- ابنتي، هناك من تقدّم لخطبتك ويريد الزّواج بك.

- ماذا؟!

تجمَّدتُ مكاني، أحسست بالحرارة وشعرت بالخجل والخوف، ثلاثتهم بمجرى دمي يسبحون معا لعبا بأوتار أعصابي. انعقد لساني واستحيت أن أنظر لوجه والدي. كانت هناك الكثير من الأفكار بعقلي، كلّها تركض في اتّجاه مغاير فوضويّ وأنا أعجز عن امساك واحدة.

- أعلم أنَّ هذا مفاجئ، ولكنّه صحيح!

- هل يعلم أنَّ لديَّ ابنة؟

- نعم.

- هل يعلم بالحادثة؟

- لقد علم للتّو.

استشعرَ خوفي وعدم استيعابي للأمور. منذ أن كنت بين عالمين، على بعد ليلة من تقبّل العام الثاني، أصبحت بين ثلاثة، والعالم الثالث بعثر أوراق الشكّ حولي. احتضنني، وقبّل عيوني كما يفعل عادة حين أكون على وشك البكاء.

- اهدئي، اهدئي، أنا معك في هذا، وأمّك كذلك، ودوما سنكون.

- كيف حصل هذا؟!

- قدّر الله ما شاء فعل؛ وصيّهُ على الهاتف الآن يريد جوابك، لكن قبل أن تجيبي، عليك أن تعرفي بضع أشياء عنه.

- ما هي؟

- قبل أن توافقي، اِعلمي أنّه عقيم، وقبل أن ترفضي، اِعلمي أنّه ذو خُلُقٍ عظيم!

- لا أريد الابتعاد عنكَ وأمّي!

- لن تبتعدي عنّا ولو بقدر شبر، سنكون هنا دوما لأجلك.

- وقدر؟! ماذا إن لم تحبه؟ وسراج الدّين؟! لن تريد الابتعاد عنه!

- سراج الدّين لن يذهب إلى أيّ مكان أيضا، ابنتي دعيني أنا أقلق بشأن كلّ هذا، فتلك هي مهمّتي إلى يوم أموت. الآن، فكّري فقط في مصلحتك، فما قولك؟!

- القول قولك أبي، هل تعلم أمّي؟

- لقد كلّمتها قبلك، هي موافقة ومتحمّسة للموضوع أيضا.

- وهل أنت موافق؟!

- نعم، لكنّني لنْ أُرغمك على القبول، فهذه حياتك، ونصف دينك. مُوافقتك هي كلّ شيء بالنسبة لي، فما هو جوابك؟

- أشعر أنّكم تحاولون التخلّص منّي!

- في الواقع، نحاول ابقاءك أكثر.

- هل هو أحد أبناء العمّ؟ أو أحد أبناء هذا الحيّ؟ لأنّ عمّتي أخبرتني قصصهم مع سراج الدّين ولا أحد منهم يبشّر بخير!

- لا، ولا، أخبرتك أنّ أخلاقه عظيمة، ويحب النقاب أيضا لأنّه شديد الغيرة وكثير الحياء. هو لطيف ومسالم، حسّاس وصادق، طريف ووسيم...فهل أنت راضية؟

- إن كنتَ أنت راض فأنا راضية...

(ابتسمَ وقبّلني على جبيني)

- رضيّ الله عنك ابنتي، سيكون لديَّ مفاجأة لك، أعدك أنّك لن تندمي.

*** *** *** *** *** *** ***

- هل ستزوّجني في عرس ابنتك حقا؟

- نعم، لن يسعدني أكثر من ذلك!

- ولم يُمانع عبد الله؟

- بل هو سعيد بالفكرة وذهب ليبشّر عائلته.

- ما هذا الّذي يحصل؟! لا أستوعب شيئا، ماذا إن لم تُحبَّ قدر زوجتي أو الطفل الّذي معها، ماذا إن هما لم يحبّانها أو كان الطّفل لئيما معها؟ أنت تعلم أنّني سأختار قدر كلّ مرّة!

- دعني أنا أهتم بذلك، فقط أخبرني بإجابتك!

- أخبرني عن الفتاة!

- شابة في مقتبل العمر، جميلة...

- لا لا، أقصد أخلاقها؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم <إنّما الدّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصّالحة>

- عليه الصّلاة والسّلام؛ رضيَ الله عنك وعن والديك ابني. هي صالحة، ذات حياءٍ شديد، تصلّي خمسها، وتصوم شهرها وتقوم ليلها وتحفظ كلام ربّها، وحتّى إنّها تقرأ الكتب، ألا تحبّ الكتب؟! فقط قل إجابتك ولا تخف!

- أَرْضَى وأمري لله...

# الخاتمة لبداية جديدة

*** *** *** *** *** *** ***

- بارك الله فيك عمّي. لقد منحتني عملا، طعاما، وبيتا، والآن تمنحني ابنتك وتمنحني ابنتي قدر. خجلي منك شديد!

- لا يا ابني، أنا من يجدر به الخجل. ارفع رأسك ولا تنكسه أمامي أبدا. لقد منحتني أكثر ممّا منحتك بكثير. لا يوجد في الدّنيا من يخاف على فتاة أكثر من أبيها، ولا فزعا أكبر للرجل من فزعه على عائلته. أنا طاعن في السّن ولا أخاف الموت، بل أخاف ما سيحدث لعائلتي بعد موتي، أخاف أن يدفعوا ثمن أخطائي وقراراتي العمياء في دنيا الفناء هذه، وأنت يا ابني آمنت خوفي. لأوّل مرّة منذ أن اغتصبت قرّة عيني، أشعر بالطمأنينة، أستطيع أن أنام مرتاح البال، أشعر بالهناء، وهذا كلّ ما يتمنّاه العبد في هذه الحياة القصيرة. كنت قد فقدت الإيمان بالرحمة في الانسان بعد أن طغت عليه المصطلحات الغربيّة كالإنسانيّة الّتي سبّقوها على أصلها، كمن يقول للخشب كن شجرة قبل أن تكون بذرة. كنت قد فقدت الإيمان بوجود السلم في ذوات البشر، فأصل كلّ انسان هو الإسلام منذ أن خلق الله آدم وحوّاء عليهما السلام، ثمّ التقيتك، ووضعك الله بسبيلي حين كنت على استعداد لك وليس بحاجة إليك فقط، كالجدار الّذي أقامه صاحب موسى عليه السلام للغلامين اليتيمين، كان أبوهما صالحا فأراد لهما الله أن يبلغا أشدّهما ليستخرجاه رحمة منه، ولا أدري أيّ عمل صالح قمت به في حياتي كي يكافئني الله بك، لكنّني سأحمده عليك حمدا يوافي نعمه. بارك الله فيك أنت يا ابني، وبارك في والديك وجعل مثواهما الجنّة مسرورين بك، ينتظران لقاءك.

*** *** *** *** *** *** ***

لقد تساءلت قبلا إن كان هناك من شعر بهذا النوع من الحبّ تّجاه أحدٍ مثلما أشعر أنا تّجاه قَدر؛ تبين أنَّ هناك الكثير منهم، لكن قليلا فقد من يقدّرونه حقّ تقديره. كان شعور الأبوّة، ولم أكن لأنعم به لولا قضاء الله وتقديره المفصّل لكتابي.

أجمل فتاةٍ لمحتها عيوني، أنابيس. منذ أن رأيتها دون نقابها، علمت أنّني سأحمد الله عليها كلّ يوم في حياتي، أستشعر جمالها من أوّل لحظة توقظني فيها للصلاة، بعبارتها المعهودة الّتي لا أملّ منها "يدي بيدك للجنة"، بنبرتها الأنس الطفوليّة. أحبها وكان والديّ ليحبّاها أكثر من حبّي لها، هذا مؤكد، ورغم حزني على عدم وجودهما جنبي ليرياها، إلّا أنّني أعلم أنّها ستلتقيهما عاجلا أم آجلا؛ كلّ ما في الأمر هو عمل صالح وحسن ظنّ بالله.

لم تفارقني قدر من يومها لحظة. لا يمكنني أن أصف بالكلمات البسيطة سعادتها حين علمت أنّني سأكون والدها، ولا يمكنني وصف سعادتي بها حين عندما تقفز على السّرير بيني وبين أمّها؛ نتناوب على تقبيل عيونها، عضّ خدودها، واللعب معها، ثمّ نراقبها تنام تعبا وسطنا، بينما نتشارك حكايات الماضي ونضيع في أعيان بعضنا، روحها تطلّ من حبيبتيها وروحي من حبيبتَي، نتبادل الغزل بلغة لا تفهمها إلّا العيون، نافذة الروح.

أنا راضٍ، بل أكثر من ذلك، أنا في نعيم. معهما قربي، حتى تعب الطاعة أصبح جنّة أتوق إليها كلّما حان وقتها لأرتاح.

لم نحتمل فراق عائلة عبد الغني، فشاورنا عبد الله، نسيبي، بفكرة بيع المنزل والانتقال جوارهم، ثمّ فتح صالة هناك والبدء من جديد، حياة جديدة، بصفحة جديدة، مع عائلة جديدة لا تتخلّى عن أفرادها وقت الشدّة. مع الوقت فعلنا، وازدهر بها مطعم عبد الغنيّ أيضا، فمن يتمرّن عندنا يأكل عنده، ومن يأكل عنده يأتي لحرق سعراته عندنا، ثمّ جعلنا للصّالة أيّاما للنّساء تعمل فيها أنابيس إن لم تكن مشغولة بورشة خياطتها، وإن كانت، تعمل بنات عمّي عوضا عنها، بينما أساعد أنا وعبد الله في المطعم. لم نكن يوما أكثر خوفا من...أقصد لم نكن يوما أكثر سعادة من نسائنا، أسأل الله أن تدوم.

حاولنا جعل عبد الغني يتمرن في الصّالة، لعلّ وعسى ينقص من حجم بطنه وينضمّ لفريق الرّجال لقلّة عددنا مقابل نسوتنا، لكن صدقت زوجته، حبّه للطعام يسبق كلّ شيء! لا زلنا نحاول رغم ذلك. أبناؤه، الّذين أصبحوا كإخوتي، يحاولون معه أيضا، لكنّنا انتهينا بحبّ طعامه أكثر ممّا هو أحبّ التمارين. ذلك الرجل يعرف حقا كيفية الطبخ...

قرّر بنات عبد الغني ارتداء الحجاب الشّرعي، كلّهن في وقت واحد، حتى أنّنا احتفلنا بذلك نوعا ما. أصبحن صديقات أنابيس المقربات، بالإضافة لفتاة اسمها "إيناس" تزورنا من وقت لآخر. لا أعرف قصّتها بعد، لكنّها فتاة منقّبة مثل زوجتي وذات خُلق وحياء حسن أيضا.

لا أقول إنّ الحياة كاملة، فدائما ما ستكون هناك صعوبات وخسائر؛ لكنّنا ما دمنا جنب الله، نحاول الابتعاد عن الحرام بقدر ما نحاول أن نكون أقرب إليه، فسنطمئن دوما أنَّ مهما كان ما يحصل حولنا، فهو قدر الله لنا، وسنرضى به ونصبر عليه. سنمرّ بالعاصفة مهما كبرت واشتدت خسائرها، لأنّه في رأيي، هناك قدر الله وهناك القرارات الخاطئة. قدر الله بلاء، وقراراتنا الخاطئة هي جزاء ما نقوم به بعيدا عن رضا الرّحمان، أو بسبب غبائنا بمعظم الأحيان، كالثّقة فيمن لا تجب الثّقة فيهم، أو حبّ انسان لغير الله؛ هذا رأيي. ما دمنا كلّنا جنب الله، نسعى لرضاه، نستغفر عند الخطأ، ونتوب عند الذنب، ولا نجهر

بالمعصية، وربّما حتّى نبتسم عند الشّدّة وندعو لبعضنا الخير في الخفاء، فلا شيء يستطيع كسرنا ولا مخلوق يستطيع الوقوف بيننا ولا مادّة تستطيع تفرقتنا، فلم نخاف الخلق ونحن جنب الخالق؟ وكلّما نسيت أو تغافلت عن رأيي الخاص، فإنَّ حديث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام سيبقى دائما صوب عيني يذكّرني ويريح نفسي ويطمئن قلبي:

"يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك؛ احفظ الله تجده تّجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله؛ واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف."

- صلى الله عليه وسلم –

فالحمد لله.

*** *** *** *** *** *** ***

لطالما تمنّيت شابا صالحا يُعينني على طاعة الله، لكن بعد ما حدث لي، كنت جدّ خائفة من نفاق الرجال وزيف أقوالهم حولي، من ضعف إيمانهم وحتّى تقلّب وجوههم على حسب أحوالهم ومزاجهم. عَلِم الله بخوفي، فأوّلا، حماني من خاطب أراد خطبتي لا خير لمثله في مثلي، ثانيا، رزقني بزوج حتى قبل أن يصبح زوجا لي، فرأيت أعماله قبل أن أسمع أقواله، ابصرت قلبه قبل أن أرى شكله. اختبر إيمانه وأخلاقه أمامي، أراني حبّه للغير وحرصه على الخير، برهن لي أمانته وصدقه، عطفه وحنانه وطيبته، حتّى أنّني عرفت رأي النّاس الّتي تعرفه فيه دون أن أسأل غريبا عنه، كلّ هذا رحمةً من ربي كي لا أخاف منه ويطمئن قلبي له، كي أتيقّن من أنّه صالح قلبا وسحنة، لا شّك فيه. عرفت كلّ ذلك عن غير قصد منّي، لكن بقصد من ربي لأنّه يعرف ما في قلبي، أعدَّهُ لي من قبل حتّى أن أولد، ورزقني بابنة صالحة لكلانا، أَحبَّها حتّى قبل أن تصبح ابنته، فأعطته صابرا ومدّته هدفا للحياة كي يبقى بالجوار ولا يرحل عنّا بعيدا، أَحبَّته بالقدر الكافي لتدخل فكرة تزويجنا لعقل والدي وعمّي عبد الغني. قدَّر الله ما شاء فعل، كلماتي من غير ذلك تعجز عن التّعبير، والحمد لله على حسن التّدبير.

نقوم الليل معًا، نصلّي معًا، نحفظ القرآن والأحاديث معًا، نقرأ الكتب معا...لكن كي أكون صادقة، هو من يقرأ لي الأكثر، لأنّه على حسب قوله لا يستطيع التركيز على كلامي بسبب غرامه بصوتي وحلاوة رقّته، لا أدري إن كان يعني ذلك أم أنّه نجح في خداعي بالمدائح كي يقرأ لنفسه. أكتب له ويكتب لي، نتنزّه على الأقدام بعد صلاة العشاء، ونقوم بالمشاريع الخيرية بنيّة الصّدقة الجارية على عائلتنا كلّها، ننشر الخير أينما كنّا، ونترك ابتسامتنا أينما حللنا.

نطبخ معا أيضا، لكن قليلا فقط، فمقابل منزلنا مطعم يهدينا الأكل بالمجان، لكنَّ زوجي، هداه الله، يحب أن يطبخ أحيانا ليجرّب وصفات علّمها له عبد الغني، وأضطر أن أجرّ قدمي معه لساحة المطبخ كي أراه يحارب، فأساعده قليلا في المعدات، أنا أحاول أن أتعلّم بدوري، لذا...صبرا علي.

قدر، ماذا أقول عنها؟ فقط حين أراها ليلا بين ذراعي والدها على السّرير تمشّط شعيرات ذراعيه بينما هو يرتّل القرآن لها كي تنام، أشعر أنَّ عالمها قد اكتمل، وعالمي أيضا بسعادتها، فأنضم إليها مداعبةً شعيرات رأسه ريثما تغطّ في نوم عميق، أو أنا قبلها.

آه، وذلك الحلم البسيط الّذي بدا مستحيلا، حين أراه يمضي بها ليصلّيا في المسجد معا، هو بقميصه الأبيض وهي تمسك بأصابعه وتقفز بنقابها الأسود المتدلّي حماسا، تلوّح لي كلّما تستدير ناحيتي، هو حقًّا أجمل من الحلم نفسه، أنا فقط أحمد الله كل لحظة وحين، فهو على كلّ شيء قدير.

بالإضافة إلى ميزة الطبخ، زوجي الحبيب يُعينني على غسل الأواني وتنظيف الملابس وحتّى الأرضية، يُسعدني القول بأنّه ملكي، ملك حياتي، هو كتاب لا يحق لغيري قراءته، ملكي وحدي، لي أنا، لا أدري إن كانت قد وصلتكم الفكرة، يعني لا مكان لثانية، ولا ثالثة ولا رابعة، للتوضيح فقط يعني.

*** *** *** *** *** *** ***

- هل أنت سعيدة؟

- ممم ربّما...

- ماذا؟! ماذا تقصدين بربّما؟

- كنت لأسعد ببعض الحلوى أو الشوكولاتة...

- ما الّذي حصلَ لعلبة الشوكولاتة الّتي أحضرتها لك قبل ساعتين؟؟!

- ممم اختفت...

- وكيس الحلوى؟

- اختفى أيضا!

- صدقا؟!

- إنّها حلوى وشوكولاتة، هل أسألك لماذا تتمرّن من جديد وأنت قد تمرّنت منذ ساعتين؟ لا، أنا لا أفعل...

- أنا فقط أريد أن أعرف أين يذهب كلّ ذلك الأكل؟ نمّي بطنا أو زدي وزنا، فقط كي نطمئن أنّك بالفعل تأكلين، أنا فقط لا أفهم!

- لا تضيّع وقتك بالبحث، فأمّي قد حاولت قبلك لسنين، أريد شوكولاتة!

- أمري لله؛ ارتدي ملابسك ولنخرج نبحث عن محلّ مفتوح في هذه السّاعة المتأخرة.

- حـــــــــــاضر!

- سعيدة الآن؟!

- ممم ربّما...

- ماذا الآن؟!

- هل تعدني بألّا تغضب؟

- وهل فعلت من قبل؟

- لا، ولكنّني لم أكسر الثُّرَيّا من قبل أيضا.

- مــاذا؟ كيف حصل ذلك!

- لست متأكّدة بما كنت أفعله بالمكنسة، ولكن الأمر حصل بطريقة ما. سأخبر قدر أن ترتدي ملابسها بسرعة لنخرج.

- هل تعتقدين أنّنا سنأخذك لشراء الحلوى والشوكولاتة بعد أن أخبرتني للتّو أنّك قد كسرت الثُّريّا؟

- لقد كان حادثا ولقد وعدتّني ألّا تغضب!

- لم أفعل، ولست غاضبا...أنا فقط غيّرت رأيي!

- لا يمكنك أن تفعل هذا، هذا ليس عدلا!

- لا تعطيني تلك النظرة الحزينة، لا تفعلي ذلك، تعرفين أنّني لا أستطيع مقاومتها!

- أرجوك!

- سأفقد عقلي قبل شعري وأنا معك، حسنٌ، طيّب، أنت تفوزين، سأنتظرك جنب الباب.

- يــاي! أحبّك، أحبّك، أحبّك...!

- لنرى أين سيوصلني حبّك.

**...ليست النهاية، ولن تكون أبدا.**